

التربية الإسلامية ومسألة التنمية

ذ. محمد بولوز
(مفتش التعليم الثانوي بأسفي)

مقدمة:

ميررات عديدة تفرض الاهتمام والحديث المستمر عن موضوع التنمية، ذلك أننا وعبر عقود مضت نعاني تخلفا مريعا في مجالات مختلفة، يتخذ له من الناحية المادية الملموسة مظاهر متنوعة، أبرزها انخفاض مستوى الدخل الفردي، والتفاوت الحاد في توزيع الثروات والدخول، وعدم استغلال الموارد بشكل كاف، أو بطرق غير سليمة، وكذا التخلف التكنولوجي وضعف الأداء الفني للعمال، وضعف البنية التحتية اللازمة، وضعف الإدارة وتفشي أنواع الفساد والاحتراف، وتدني المستوى العلمي والثقافي والصحي عند أفراد المجتمع وتفشي الأمية بمختلف أشكالها بشكل كبير، ونقص في رؤوس الأموال، يضاف إلى ذلك من الناحية النفسية شيوع النظرة الدونية للذات، واحتقار النفس أمام حضارة الآخر، وقد نتج عن جميع ذلك وغيره عدم الاستقرار النفسي والاجتماعي والاقتصادي وغياب التوازن في مجالات مختلفة، وانتشار البطالة ورسوخ التبعية على أكثر من صعيد، وغير ذلك من الآفات الداخلية، وأخرى خارجية، لها انعكاسات إقليمية ودولية، تعود بالسلب على القضايا الحيوية للأمة. فما هي ميررات ربط موضوع التنمية بمسألة التربية عموما وبالتربية الإسلامية على الخصوص؟ وهل ثمة خصوصيات تميز الإسلام في نظراته إلى موضوع التنمية؟ وإذا كان الأمر كذلك فما مفهومه للتنمية، وما طبيعتها، وما أهدافها، وما ضوابطها، وما هي وسائل الحفز عليها؟

مفهوم التنمية

تعرف التنمية في الفكر الاقتصادي والاجتماعي المعاصر، على أنها النمو المتواصل في الدخل القومي وهو: مجموع ما ينتجه المجتمع من السلع والخدمات في فترة زمنية معينة، ويؤدي مثل هذا النمو في الدخل القومي عادة إلى نمو مواز في معدل الدخل الفردي، والذي نحصل عليه بقسمة مجموع الدخل القومي على مجموع عدد الأفراد في المجتمع¹.

ويفترض عادة أن تعطي الدخل المرتفعة فرصا واسعة للأفراد لاستهلاك السلع والخدمات التي ينتجها المجتمع، وتحد الدخل المنخفضة من ذلك، مما يعود سلبا على مستوى الرفاه الاجتماعي ونمط الحياة الذي يعيشه الأفراد وأسرهم. وأما في المنظور الإسلامي² فالتنمية ليست عملية اقتصادية بحتة، وإنما هي عملية إنسانية تهدف إلى تنمية الإنسان وتقديمه في مختلف المجالات الممكنة، النفسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية والعلمية وغيرها، بما يحقق له الكرامة الإنسانية والحياة الطيبة في الدنيا، ويحقق أشواقه الروحية في الآخرة بنيل رضوان الله ودخول الجنة والنجاة من النار. فليس هم التنمية في الإسلام هو التكاثر وزيادة كم الإنتاج في السلع والخدمات المادية، ولو على حساب القيم والمبادئ والأبعاد الأخرى غير المادية في الإنسان، وإنما السعي إلى التوفيق بين إشباع الحاجات المادية وتلبية أشواقه الروحية ومتطلباته النفسية والاجتماعية، بما في ذلك تحقيق عدالة اجتماعية بأوسع معانيها، أي سير عملية النمو المستمر للإنتاج مصحوبة بعدالة التوزيع، فيجتمع قصد الوفرة الاقتصادية والرفاه المادي على مستوى المجتمع، مع استحضار الكينونة المتكاملة للإنسان، والتلاحم الاجتماعي بين الناس.

ويقابل التنمية بمفهومها المعاصر مفاهيم في التراث الإسلامي من مثل: العمارة، الكسب، العمل، رغد العيش، الإنتاج، الإحياء... فالعمارة في اللغة ما يعمُر به المكان، يُقال: عمَرَ اللهُ بكَ منزلكَ : وأعمَرَهُ جَعَلَهُ أهلاً عامراً بكَ ، وَعَمَرَتِ الخرابَ أعمَرَهُ عمارةً أحببته ، وَيَطْلُقُ عَلَى البِنَاءِ . وفي الباصطلاح : القِيَامُ بما

¹ - التنمية من منظور إسلامي (وقائع ندوة عمان يوليو 1991) ج 2.

² - نفسه.

يُصْلِحُ الْعَقَارَ ، أَوْ الْبِنَاءَ مِنْ إِحْيَاءِ الْأَرْضِ ، وَتَرْمِيمِ الْبِنَاءِ ، وَتَجْصِيصِهِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُصْلِحُهُ عُرْفًا¹. وَالْكَاتِبَاتُ فِي عُرْفِ اللِّسَانِ تَحْصِيلُ الْمَالِ بِمَا حَلَّ مِنَ الْأَسْبَابِ².

والعمل كل فعل يصدر عن الإنسان سواء أكان صالحا أم سيئا، قصد به الدنيا أم الآخرة، وعيش رغيد : طيب واسع ، وأصل الإنتاج نتج، ونتج الشيء من الشيء: خرج منه ونشأ، ونتاج البهيمة وضعت وولدت ، وأنتج القوم كان عندهم إبل وشاء حوامل أو نتجت إبلهم وشاؤهم ، واستنتج طلب الإنتاج ، والإحياء : عمارة الأرض الخربة ببناء ، أو عرس ، أو سقي³ ويمكن تتبع مفردات التنمية في الفقه الإسلامي من خلال مصطلحات من مثل: المزارعة والمساقاة والمغارسة والبيوع والشركات والاستصناع والمضاربة والإيجار وإحياء الموات وأحكام المعادن والحمى والإقطاع وغيرها من أبواب المعاملات .

علاقة التنمية بالتربية

يرجع الخبراء عوامل التخلف في بلدان العالم الثالث إلى العوامل الجغرافية والطبيعية غير الملائمة، والعوامل السياسية للدول الاستعمارية والإمبريالية، التي بنت معظم مدنها من خلال ما نهبت من مستعمراتها، وربط اقتصاديات الدول المتخلفة بمصالحها بحيث يكون مكمل لها، وكذا إغراقها بالقروض الربوية، ومنع التكنولوجيا المتقدمة عنها، ثم العوامل النفسية والاجتماعية والثقافية السائدة والاعتقادات الفاسدة التي تعوق التنمية.

ونعتقد أن هذه العوامل الأخيرة هي الأكثر تأثيرا والأخطر شأنًا، لأنها تهتم الفاعل المباشر في عملية التنمية، وتخص العامل الذاتي الذي يمكن التحكم فيه

¹ - الموسوعة الفقهية ج 30 ص: 299 وما بعدها إصدار وزارة الأوقاف الكويتية.

² - الكسب لمحمد بن الحسن الشيباني (ت 189) تحقيق سهيل زكار. ط. دمشق دار عبد الهادي حرصوني. (اختصرت مجمل أفكار الكتاب في نقطة حوافر التنمية مع تصرف يسير في بعض العبارات).

³ - نفسه.

وتوجيهه، ويكاد يكون الأمل في التغيير والإصلاح، بل ويمكن التعويل عليه في تجاوز كثير من العوائق الطبيعية والجغرافية والسياسية كما حدث في التاريخ القديم والمعاصر، ودلت عليه وقائع العديد من الشعوب. ومن حسن الحظ أن هذه العوامل تدخل جميعها في دائرة تأثير المجال التربوي.

ومما يذكر عادة في هذه العوامل، تبني الناس لبعض الخرافات والأساطير في تعاملهم مع الكون والبيئة المحيطة، واعتقاد الجبرية والحتمية والركون إلى الكسل والخمول والسلبية، والدعوة إلى التقشف والزهد المزيف وإهمال الجوانب المادية للحياة، وشيوع التواكل والنظرة الخاطئة لمعنى الفضاء والقدر. يضاف إلى ذلك بعض العادات السيئة مثل: تضييع الأوقات وصرفها في غير النافع من الأمور، وشيوع العقلية الاستهلاكية من غير إنتاج، وما يصحب عادة ذلك من إسراف وتبذير وتفاجر بالمظاهر والأشكال، وكذا شيوع بعض الأمراض الاجتماعية مثل: المحسوبية والرشوة والفساد الإداري القضائي وأنواع الغش، والنظرة العصبية الإقليمية والعشائرية الضيقة في تدبير الشأن المالي والاقتصادي وتقديم ذلك على الخبرة والكفاءة، يضاف إلى ذلك فقدان الثقة في الإنتاج المحلي، وفرار الأموال والعقول إلى الخارج، وإغفال الخطط التنموية-إن وجدت-لمظاهر التكامل مما يعرض المشاريع لأخطار التنافس غير المبرر مما يساهم في تبديد الطاقات.

ونظرا لاختلاف عوامل التخلف ذات الخلفية النفسية والاجتماعية والاعتقادية من بيئة إلى أخرى ومن مجتمع إلى آخر، لابد للتربية التي يراد لها أن تعالج الخلل أن تكون منسجمة مع طبيعة المجتمع من حيث مثله ومبادئه وفلسفته الأصلية وليس بالضرورة مع انحرافات وشذوذه. فالتنمية الناجحة هي التي تبني على أسس فكرية سليمة لها جذورها الراسخة في كيان الأمة وأعماقها، بحيث تنبثق عنها كل الممارسات الخاصة والعامة، فالتنمية ترتبط بالفلسفة الفكرية التي يتبناها المجتمع. وما لم تعالج الآفات والأمراض الثقافية والاجتماعية، فستظل هي نفسها عوامل مقاومة، تعوق تنزيل أي مشروع تنموي، مهما كان ناجحا في موطنه الأصلي، كما أن حوافز التفاعل مع التنمية ستظل بدورها قاصرة وضعيفة، ما لم تنبثق من فلسفة المجتمع ومن قناعاته، فإذا أريد للتنمية النجاح لابد من انسجام

تام بين ما يعتقدہ الناس وما يطبق عليهم من تشريعات، وما يؤخذون به من ممارسات وما يستهدفهم من مخططات.

ويبقى عنصر التربية والتعليم هو عصب عملية التنمية على مستوى الوسائل والغايات، وقد أثبتت التربية الإسلامية جدارتها التاريخية في العملية التنموية ليس فقط في أبعادها الروحية والفكرية والمعنوية والأخلاقية، وإنما أيضا في بعدها المادي، ويكفي أنها حولت العرب من مجتمع هش فقير متخلف كسول لاه، إلى مجتمع غني متقدم منتج جاد، قاد العالم لفترة طويلة من الزمن في مختلف مجالات الحياة.

الإسان أساس التنمية:

تأكدنا السابق على أهمية العامل التربوي في مجال التنمية، وأهمية المكونات العقيدية والفكرية والعادات والسلوك، يبرز محورية الإسان في العملية التنموية فهو من يقوم ويباشر هذه العملية. فهو المحرك الأساسي للنشاط الاقتصادي والكانن المسؤول عن مستوى الأداء، ومهما كانت طبيعة الموارد المادية من حيث الوفرة والتنوع والجودة، لا يمكن لأي ذي قيمة أن يتحقق، ولا يمكن لأية قوة دافعة أو استراتيجية أي منهج، أن تعمل بكفاءة مناسبة في غياب الإسان. فبالاجتماع الإساني يتحقق العمران كما يقول ابن خلدون، وبانتقاض الإسان تنتقض العمارة، ويتحدث عن بعض ما حدث في التاريخ (في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي يخيف الأمم، وذهب بأهل الجيل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها، وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها، فقتل من ظللها وقل من حدها وأوهن من سلطاتها، وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أموالها، وانتقض عمران الأرض بانتقاض البشر، فخربت الأمصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم، وخلت الديار والمنازل، وضعفت الدول والقبائل)¹ والإسلام في هذا المجال يعتني بأهمية استمرار النوع البشري، وتكثير سواده والمحافظة عليه في ظروف تحفظ عليه إنسانيته، حيث يؤكد على الزواج ونظام الأسرة، وحفظ الضروريات الخمس وعلى رأسها النفس البشرية، فشرع من

¹ - مقدمة ابن خلدون ج 1 ص: 33-35.

الدين ما يكفل بقاءها وحرمة الانتحار وأنزل أشد العقوبات على من يعتدي على حرمتها، وجعل رعايته من مسؤولية الأسرة ثم الأقارب ثم عموم المجتمع، وفرغ الأم من عدد من الأعباء الخارجية وأعفاها من وجوب الإنفاق على نفسها أو غيرها إلا أن تضطر إلى ذلك، حتى يكون أبلغ في الرعاية والتوجيه والتربية. وأي مخطط تنموي يغيب هذه الأولويات تحدث بينه وبين منهج الإسلام وحشة وغربة وجفاء بمقدار ذلك التغييب والإقصاء.

فالمنهج الإسلامي في التنمية يبدأ بالإنسان ويستمر بالإنسان ويستهدف الإنسان، وبالتربية يستقيم أمره ويصلح حاله ويساهم بدوره في الإصلاح وال عمران والتنمية على خير الأوجه وأحسنها.

طبيعة التنمية في الإسلام وخصائصها:

أ - الربانية: للتنمية في المذهبية الإسلامية ارتباط وثيق بعقيدة التوحيد، فالله عز وجل رب العالمين ورب السماوات والأرض، خلق الإنسان من قبضة من طين ونفخة من روح، واستخلفه في الأرض ليقوم بما يناسب طبيعته الطينية من عمارة هذه الأرض، وبما يناسب طبيعته الروحية من عبادة ربه. وكما أن القيادة في الإنسان منحت لروحه، فالعمارة بدورها تخضع لمنهج العبادة فتكون وفق ما شرع الله من قواعد وأحكام. وأي نكوص في مسار العمارة والتنمية عن هذا المنهج لن ينتج سوى الخراب والفساد، ولو مع وفرة الكم وتطور النوع وزخرفة الشكل، تماما كما يحدث للفرد عندما يسلم قيادته لنزعاته وشهواته الطينية بعيدا عن ضوابط الشرع.

فبعد أن هيا الله كل شيء أحسن ما يكون التهييء، خلق الإنسان في أحسن تقويم (الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين) ¹ وبعد أن نفخ فيه من روحه أكرمه وأسجد له ملائكته وأعلن فيهم أنه جعله خليفة (وإذ قال ربك

¹ - سورة السجدة، الآية 7

لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً¹. ثم حدد مهمته ووظيفته فقال عز وجل (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي)².

وفي علاقته بالأرض التي أهبط إليها، أمره بعمارته، وحذره من الافتتان بها، وذلك بعدم نسيان العبادة والاستغفار وشكر النعم الظاهرة والباطنة (هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ ثُمَّ تُوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ. وَقَالَ تَعَالَى (الَّذِينَ تَرَوُا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)⁴. وقال أيضا (وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ)⁵. وأمره بالسير في الأرض لابتغاء الرزق دون نسيان يوم النشور والبعث وأمر الآخرة: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)⁶. ومن أثر هذا التذكير اتباع شرع الله وتطبيق أوامره مثل الأمر بالزكاة والتصدق بشيء مما نالته اليد من الرزق: (وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ)⁷. وهكذا تمتزج العقيدة والعبادة والعمارة في المنهج الرباني بشكل متكامل لا ينسى العبد ربه وهو يأخذ غمار التنمية ولا ينسى الانتشار في الأرض بعد انقضاء الصلاة (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)⁸. ويستوي في ميزان الله إذا جند العبد نفسه ليكون رهن إشارة الأمة في ساحة الجهاد أو العلم والتفقه في الدين أو الضرب في الأرض ابتغاء الرزق قال تعالى: (عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي

¹ - سورة البقرة الآية 30

² - سورة الذاريات، الآية 56

³ - هود 61

⁴ - لقمان 20

⁵ - الأعراف 10

⁶ - الملك 15

⁷ - الحديد 7

⁸ - الجمعة 10

الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ).¹ وقال أيضا : (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ).²

فالتنمية في الإسلام تقوم على التعامل مع الإنسان بكيونته المتكاملة جسما وعقلا وروحا ،فتشبع حاجاته وتلبي أشواق روحه ويفتح المجال لعقله ليبدع وينطلق اجتهادا في فهم نصوص الشريعة وفي إعمار الأرض وتحقيق تقدم الإنسان ونمو حياته المادية والخلقية والعلمية والاجتماعية..

ب-الشمول: من خلال العنصر السابق رأينا المزج القوي بين دنيا الناس وآخرتهم، فالإسلام يجعل الدنيا مزرعة للأخرة ففي الوقت الذي تتقدم التنمية في الأرض وينمو المال الصالح يستفيد العبد الصالح أجرا وحسنات بفعل ما يوفره هذا المال من أفعال الخير والبر والمعروف فينمي رصيده في الآخرة ،فهي تنمية تشمل الدنيا والآخرة، ويعم خيرها الجوانب المادية والروحية.كما أن الفرد وهو في طريقه لتنمية رصيده الأخرى والقيام بواجباته الاجتماعية وفروض العين والكفاية تستفيد الجماعة.

ج-التوازن: فبالإضافة إلى تشجيع الإنتاج المادي، هناك تركيز أيضا على البعد الاجتماعي،حتى لا يكون المال دولة بين الأغنياء فجعلت الزكاة من أركان الدين وحثت النصوص الشرعية على مختلف أوجه الإنفاق الواجبة والمستحبة، وشرعت نظاما في الإرث يعيد توزيع الثروة على رأس كل جيل وجعلت العدالة الاجتماعية مقصدا أساسيا من مقاصد نظامها.

د-المسؤولية المشتركة: التنمية في الإسلام مسؤولية الجميع كل بحسب جهده وطاقته،فمن الأغنياء المال ومن الفقراء الكد والجهد،والدولة توجه الإنتاج وتوفر البنية الأساسية للتنمية وتسن من التشريع والقوانين في إطار الشرع الحنيف ما يناسب ويسهل عملية الإنتاج وتطويره ،كما أن من مهامها السهر على

¹ - المزمّل 20

² - التوبة 122

القيام بفروض الكفاية جاء في كتاب الكسب للأبي الحسن الشيباني (قال ابن حمدان رحمه الله وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِي كُلِّ بَلَدٍ طَبِيبٌ وَكَحَّالٌ وَجِرَّاحِيٌّ وَطَحَّانٌ وَخَبَّازٌ وَلَحَّامٌ وَطَبَّاحٌ وَشَوَّاءٌ وَبَيْطَارٌ وَإِسْكَافٌ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الصَّنَائِعِ الْمُحْتَاجِ إِلَيْهَا غَالِبًا كِتَابَةَ وَقَصَارَةَ وَمَكَارَةَ وَوَارِقَةَ).

أهداف التنمية:

للتنمية في الإسلام مقاصد في التنمية تتبع من العقيدة ومبادئ الدين، وعلى رأسها تحقيق مرضاة الله بالسير في التنمية وفق شرعه، وتحقيق الحياة الطيبة في الدنيا تجسيدا لموعود الله للمؤمنين قال تعالى: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)¹ وكذا تحقيق سعادة المؤمن في العاجلة كما جاء في مسند الإمام أحمد: (حَدَّثَنَا رُوْحٌ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي حُمَيْدٍ حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ عَنْ أَبِيهِ

عَنْ جَدِّهِ □ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ □ مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ ثَلَاثَةٌ وَمِنْ شِقْوَةِ ابْنِ آدَمَ ثَلَاثَةٌ مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ وَالْمَسْكَنُ الصَّالِحُ وَالْمَرْكَبُ الصَّالِحُ وَمِنْ شِقْوَةِ ابْنِ آدَمَ الْمَرْأَةُ السُّوءُ وَالْمَسْكَنُ السُّوءُ وَالْمَرْكَبُ السُّوءُ) وفي رواية من صحيح ابن حبان، عن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه عن

جده □ قال قال رسول الله □ أربع من السعادة المرأة الصالحة والمسكن الواسع والجار الصالح والمركب الهنيء، وأربع من الشقاوة الجار السوء والمرأة السوء والمسكن الضيق والمركب السوء.

ويلحق بذلك كل ما يعتبر من ضروريات الحياة، بحسب اختلاف الأماكن والأزمان، كالتطبيب والتعليم والدخل المحترم، بما يحقق الحياة الكريمة لكل إنسان، والمعول عليه في ذلك بداية جهد الأفراد واجتهاداتهم الخاصة لما جبلوا عليه من حب المال وسد الحاجات، وتتدخل الدولة وهيئات المجتمع وأفراده الفاعلين، عند عجز البعض عن تحقيق ذلك، بما يكفل التوزيع العادل للدخول والثروات، والعمل على تأمين فرص العمل للقادرين عليه.

¹ - النحل 97

وعلى صعيد الأمة تهدف التنمية إلى بناء المجتمع السليم، والقيام بواجب العمارة وتوفير مختلف المرافق الاقتصادية التي تحتاجها الأمة وفق مخطط سليم، يستثمر الإمكانيات المتاحة ويحقق القوة الاقتصادية الكفيلة بالوقوف في وجه مختلف التحديات، ويمتدح الأمة بأقصى ما يمكن من الاستقلال الاقتصادي.

ضوابط التنمية:

التنمية في الإسلام شأنها شأن المسلم في الحياة، له مبادئ ينطلق منها وضوابط يلتزمها ومقاصد يصبو إليها، فهي منضبطة بضوابط العقيدة والشريعة والأخلاق وخدمة مقاصد الأمة. المال مال الله وهو مصدر النعم وواهبها، والإنسان مستخلف فيها يسأل عن كيفية تحصيلها وعن كيفية إنفاقها روى الإمام الترمذي

عَنْ أَبِي بَرزَةَ الْأَسْلَمِيِّ □ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ □ لَأَنْ تَزُولَ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ (وَقَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

والأمة تتولى ملكية المرافق الضرورية والحيوية التي يتحقق الضرر في تفويتها للأفراد، وقد تفوض من يقوم بها وفق شروط مرضية، وتقوم الدولة على حماية الملكية الفردية وتوجيهها لخير أصحابها وأسرهم ومجتمعهم. وتراعى في التنمية أولويات الأمة في تحقيق استقلالها وقوتها، والانخراط في مشروعها الحضاري، والمساهمة في تحقيق فروض الكفاية، وكذا ربط المصير بالمصير في المقاومة الاقتصادية، وجهاد المقاطعة لأي عدو متربص بها، مهما كلف ذلك من تضحيات خاصة. ومن ذلك أيضا مساهمة التنمية في إعداد العدة لمواجهة الأخطار الخارجية ومساهمتها في العدالة الاجتماعية لتحقيق التماسك الداخلي.

كما أن التنمية في الإسلام تنضبط بضوابط الحلال والحرام، ولا يتعدى بها حدود الله، فيحرم فيها الغش والربا والقمار والاحتكار والرشوة والغبن والغرر والكذب والزور...، والمتاجرة أو العمل أو الصناعة فيما حرم الله من كل ما يتنافى العقيدة، كالصلبان والتمائيل ورموز الديانات الباطلة وما فيه إساءة لرموز الإسلام، أو يعرض النفوس والأبدان والعقول للأخطار، كبيع السلاح لمن يستعمله في

الإجرام أو بيع الميتة والدم الحرام ولحم الخنزير والخمر والمخدرات...وكذا الاستثمار في كل ما يؤدي الأعراض، كالمسابح المختلطة والأفلام الماجنة ومختلف أشكال الفنون المروجة للفاحشة والأنشطة المخلة بالحياء، والتي تجعل الزنى والمتاجرة بالأجساد وسيلة للكسب .

والتنمية في الإسلام قبل ذلك وبعده ،تراعي المحافظة على البيئة فيجتهد المسلم في تقليل الفساد المحتمل في البر والبحر والجو، لأنه يعلم أن ذلك مقرون بكسب الإنسان كما قال تعالى : (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)¹ ويجتهد في المحافظة على ما فطر الله عليه المخلوقات، لأن تغيير الخلق في المقدور عليه من ذلك، استجابة لرغبة الشيطان وإفساد في الأرض ،قال تعالى حكاية عن عمل إبليس : (وَأُضِلُّهُمْ وَأَمْنَيْنَهُمْ وَأَمْرَتَهُمْ فَلْيُبْتِئَنَّ أَذَانَ النَّاعِمِ وَلَأْمَرْتَهُمْ فَلْيَغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا)² ومن ذلك الاستنساخ عوض التوالد الطبيعي وإطعام الحيوانات العاشبة طعام اللاحمة، مما نتج عنه ما سمي بجنون البقر.

وللتنمية ضابط آخر هو عدم الإسراف والتبذير لقوله تعالى : (وَلَا تُبْذِرْ تَبْذِيرًا، إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا)³ وقد امتنع عمر □ عن تقسيم أرض السواد بين الجند رعاية لحقوق الأجيال القادمة من المسلمين، الأمر الذي يفهم منه عدم أحقية أي جيل في استنزاف خيرات الأمة وطاقاتها ومواردها بما هو فوق الحاجة، أو إغراق ميزانية الدولة في ديون تكبل أعناق الذرية اللاحقة.

¹ - الروم 41

² - النساء 119

³ - الإسراء 27

حواجز التنمية ودور التربية الإسلامية في ذلك

التنمية والعمارة والكسب من الواجبات الدينية: فهي أمور من مسؤولية الدولة والأفراد، جاء في الموسوعة الفقهية التي تصدرها وزارة الأوقاف الكويتية ما يلي: واجبات الدولة العامة: - يتعين على الدولة ممثلة بمجموع سلطاتها أن ترعى المصالح العامة للمسلمين الداخلين تحت ولايتها، وجماع هذه المصالح يعود إلى: (1) حفظ أصول الدين وإقامة الشريعة. (2) إقامة الحدود، وعقوبة المستحق وتعزيره. (3) حفظ المال العام للدولة. (4) إقامة العدل وتنفيذ الأحكام وقطع الخصومات، (5) رعاية أهل الذمة، (6) تكثير العمارة. (7) إقامة السياسة الشرعية.

واعتبر الفقهاء ترك العمارة من تضييع المال الذي أمر الله بحفظه، فقال الشافعية: يجب على ناظر الوقف عمارة الموقوف من ريع الوقف، أو من جهة شرطها الواقف، كما يجب على الولي عمارة عقار مؤليه من ماله، أو من غيره مما هو له، وعلى الناظر في المشترك بطلب شريكه، سواء الموقوف والمملوك ككنحو مسجد، وعلى ولي المحجور عليه عمارة أملاكه، وعلى ولي الأمر في مال غائب، أو ميت لا وارث له، وعليه ديون، أما البالغ الرشيد فلا تجب عليه عمارة أملاكه مما لا روح له كقناة ودار، وأرض له خراب؛ لأن تنمية المال غير واجبة، لكنه يندب عمارتها، ويكره تركها حذراً من إضاعة المال بغير الفعل.

وكان المسلمون يرون أن العمارة أهم وظائفهم بعد تبشير الناس بدين الهداية، ويعتبرون أمرها مقدم على الاهتمام بالخراج المحصل من أرض الفتوح،

فقد روي عن علي أنه كتب إلى واليه في مصر يقول: (وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة، ومن طلب الخراج من غير عمارة أخرج البلاد).

كما اعتبر الفقهاء الكسب فريضة من فرائض الدين يقول الإمام أبو الحسن الشيباني¹ (طلب الكسب فريضة على كل مسلم، فطلب الكسب بعد الصلاة المكتوبة

¹. 1- الكسب لأبي الحسن الشيباني. مرجع سابق.

الْفَرِيضَةُ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ ، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ { طَلَبُ الْحَلَالِ كَمَقَارَعَةِ الْأَبْطَالِ ، وَمَنْ مَاتَ

دَانِبًا فِي طَلَبِ الْحَلَالِ مَاتَ مَغْفُورًا } وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ □ يُقَدِّمُ دَرَجَةَ
الْكَسْبِ عَلَى دَرَجَةِ الْجِهَادِ فَيَقُولُ لَأَنْ أَمُوتَ بَيْنَ شُعْبَتَيْ رَجُلٍ أَضْرِبُ فِي الْأَرْضِ
ابْتِغَى مِنْ فَضْلِ اللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتَلَ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى
قَدَّمَ الَّذِينَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى الْمُجَاهِدِينَ بِقَوْلِهِ { وَآخَرُونَ
يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ } الْآيَةِ ، وَفِي الْحَدِيثِ { أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ

□ صَافِحَ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ □ فَإِذَا يَدَاهُ قَدْ اكْتَبَتَا فَسَأَلَهُ النَّبِيُّ □ عَنْ ذَلِكَ

فَقَالَ : أَضْرِبُ بِالْمَرْءِ وَالْمَسْحَاةَ لَأَنْفِقَ عَلَى عِيَالِي فَقَبِلَ رَسُولُ اللَّهِ □ يَدَهُ وَقَالَ
كَفَانَ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ تَعَالَى } . وَفِي هَذَا بَيَانٌ أَنَّ الْمَرْءَ بِاِكْتِسَابِ مَا لَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ يَنَالُ
مِنَ الدَّرَجَاتِ أَعْلَاهَا ، وَإِنَّمَا يَنَالُ ذَلِكَ بِإِقَامَةِ الْفَرِيضَةِ ، وَلِأَنَّهُ لَا يَتَوَصَّلُ إِلَى إِقَامَةِ
الْفَرَضِ إِلَّا بِهِ ، فَحِينَئِذٍ كَانَ فَرَضًا بِمَنْزِلَةِ الطَّهَارَةِ لِأَدَاءِ الصَّلَاةِ وَبَيَانُهُ مِنْ وَجْهِ :
أَحَدُهَا ، أَنَّ يُمَكِّنُهُ مِنْ أَدَاءِ الْفَرَائِضِ بِقُوَّةِ يَدَيْهِ ، وَإِنَّمَا يَحْصُلُ لَهُ ذَلِكَ بِالْقُوَّةِ
عَادَةً ، (...) وَإِنَّمَا لَا يَتَوَصَّلُ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا بِالْكَسْبِ ، كَمَا لَا يَتَوَصَّلُ إِلَى أَدَاءِ الصَّلَاةِ
إِلَّا بِالطَّهَارَةِ ، وَكَأَنَّ بَدَّ لِذَلِكَ مِنْ كَوْرِ يَسْتَقِي بِهِ الْمَاءَ أَوْ دَلَّوْ أَوْ رَشًا يَنْزَحُ بِهِ الْمَاءُ
مِنَ الْبِنْرِ ، وَكَذَلِكَ لَا يَتَوَصَّلُ إِلَى أَدَاءِ الصَّلَاةِ إِلَّا بِسِتْرِ الْعُورَةِ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ
بِتَوْبٍ ، وَكَأَنَّ يَحْصُلُ لَهُ ذَلِكَ إِلَّا بِاِكْتِسَابِ عَادَةٍ وَمَا لَا يَتَأْتَى إِقَامَةَ الْفَرَضِ إِلَّا بِهِ
يَكُونُ فَرَضًا فِي نَفْسِهِ) .

الكسب طريق أداء النفقات الواجبة:

قال تعالى (أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ) وَالْأَمْرُ حَقِيقَةٌ لِلْوَجُوبِ ، وَلَنَا
يَتَوَصَّرُ الْإِنْفَاقُ مِنَ الْمَكْسُوبِ إِلَّا بَعْدَ الْكَسْبِ وَمَا لَا يَتَوَصَّلُ إِلَى إِقَامَةِ الْفَرَضِ إِلَّا بِهِ
يَكُونُ فَرَضًا فَاللَّهُ تَعَالَى أَمَرَ بِالْإِنْفَاقِ عَلَى الْعِيَالِ مِنَ الزَّوْجَاتِ وَالْأَوْلَادِ وَالْمُعْتَدَاتِ
ت ، وَيُفْتَرَضُ عَلَيْهِ الْكَسْبُ بِقَدْرِ كِفَايَتِهِمْ غَنِيًّا ؛ لِأَنَّ الْإِنْفَاقَ عَلَى زَوْجَتِهِ مُسْتَحَقٌّ عَلَيْهِ
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى (أَسْكِنُوهُمْ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ) وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا (وَعَلَى

الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ) وَقَالَ □ : { كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَمُونُ

(وَقَالَ : (إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَإِنَّ لَأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ) فَإِنْ كَانَ لَهُ أَبُوَانِ كَبِيرَانِ مُعْسِرَانِ ، فَإِنَّهُ يُفْتَرَضُ عَلَيْهِ الْكَسْبُ بِقَدْرِ كِفَايَتِهِمَا ؛ لِأَنَّ

نَفَقَتَهُمَا مُسْتَحَقَّةٌ عَلَيْهِ بَعْدَ عُسْرَتِهِ إِذَا كَانَ مُتَمَكِّنًا مِنَ الْكَسْبِ ، قَالَ □ لِلرَّجُلِ

الَّذِي أَتَاهُ وَقَالَ أُرِيدُ الْجِهَادَ مَعَكَ : (أَلَيْكَ أَبُوَانِ قَالَ نَعَمْ قَالَ □ ارْجِعْ فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ) يَعْنِي اكَتَسِبْ وَأَنْفِقْ عَلَيْهِمَا ، وَقَالَ تَعَالَى : (وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا } . وَكَيْسَ مِنَ الْمُصَاحِبَةِ بِالْمَعْرُوفِ تَرْكُهُمَا يَمُوتَانِ جُوعًا مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى الْكَسْبِ ، وَلَا يَتِمَكَّنُ مِنَ الْإِنْفَاقِ عَلَيْهِمْ إِلَّا بِتَحْصِيلِ الْمَالِ بِالْكَسْبِ وَمَا يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى آدَاءِ الْوَاجِبِ يَكُونُ وَاجِبًا . وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ دَيْنٌ فَالْإِكْتِسَابُ بِقَدْرِ مَا يَقْضِي بِهِ دَيْنَهُ فَرَضٌ عَلَيْهِ .

الكسب سبيل لأداء أنواع من الطاعات :

بِالْكَسْبِ يَتِمَكَّنُ الْعَبْدُ مِنْ آدَاءِ أَنْوَاعِ الطَّاعَاتِ مِنَ الْجِهَادِ وَالْحَجِّ وَالصَّدَقَةِ وَبِرِّ الْوَالِدَيْنِ وَصَلَةِ الرَّحِمِ وَالْبِحْسَانِ إِلَى الْأَقْرَابِ وَالنَّجَاتِ . فَيُنْدَبُ إِلَى الْإِكْتِسَابِ لِلإِنْفَاقِ

وَالصَّدَقَةِ بِشَكْلِ عَامٍ لَمَّا فِي ذَلِكَ مِنَ الْأَجْرِ الْعَظِيمِ رَوَى عَنِ النَّبِيِّ □ أَنَّهُ قَالَ : فِي الْإِنْسَانِ سِتُونَ وَثَلَاثُمِائَةَ مَفْصِلٍ ، عَلَيْهِ أَنْ يَتَصَدَّقَ عَنْ كُلِّ مَفْصِلٍ صَدَقَةً ، فَسَأَلُوهُ مَنْ يُطِيقُ ذَلِكَ ؟ قَالَ النَّخَاعَةُ تَرَاهَا فِي الْمَسْجِدِ فَتَدْفِنُهَا ، أَوْ الشَّيْءَ فَتُحْيِيهِ عَنْ الطَّرِيقِ ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَرَكَعْنَا الضُّحَى يَجْزِيَانِكَ) .

وعموماً فالكسب من أسباب التعاون على إقامة الطاعة وإليه أشار علي □ في قوله لا تسبوا الدنيا فنعمة مطيبة المؤمن الدنيا إلى الآخرة ولو لم يكن في الكسب سوى التعفف والاستغناء عن السؤال لكان مندوباً إليه .

الكسب طريق المرسلين صلوات الله عليهم :

وَقَدْ أَمَرْنَا بِالْتَّمَسْكَ بِهِدَاهُمْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى (فَبِهِدَاهُمْ أَفْتَدِهِ) وَبَيَّانُهُ أَنْ أَوَّلَ مَنْ اكَتَسَبَ ، أَبُوْنَا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى (فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى) أَيِ تَتَعَبُ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي تَفْسِيرِهِ لَا تَأْكُلْ خُبْزًا بِزَيْتٍ حَتَّى تَعْمَلَ عَمَلًا إِلَى الْمَوْتِ وَفِي الْأَثَارِ (...) وَكَذَا نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ نَجَّارًا يَأْكُلُ مِنْ كَسْبِهِ وَإِدْرِيسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ خِيَّاطًا وَإِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ بَزَّازًا عَلَى مَا رُوِيَ عَنِ

النَّبِيِّ □ قَالَ { عَلَيْكُمْ بِالْبِزْرِ , فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ بَرَّازًا } بِعَنِي الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ { وَدَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ كَسْبِهِ } (...) قَالَ اللَّهُ تَعَالَى { وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ } وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ { وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ } فَكَانَ يَصْنَعُ الدَّرْعَ وَيَبِيعُ كُلَّ دَرْعٍ بِأَتْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا فَكَانَ يَأْكُلُ مِنْ ذَلِكَ وَيَتَصَدَّقُ { , وَسَلِّمَانُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَصْنَعُ الْمَكَابِيلَ مِنَ الْخُوصِ فَيَأْكُلُ مِنْ ذَلِكَ , وَرَكَرِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ تَجَارًا , وَعَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ غَزَلِ أُمِّهِ وَرَبِّمَا كَانَ يَلْتَقِطُ السُّنْبُلَةَ فَيَأْكُلُ مِنْ ذَلِكَ , وَهُوَ نَوْعٌ اِكْتِسَابٍ . وَنَبِيْنَا □ كَانَ يَرَعَى فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ عَلَى مَا رُوِيَ { أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِأَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَوْمًا كُنْتُ رَاعِيًا لِعَقْبَةَ بْنِ مُعِيْطٍ وَمَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا وَكَانَ رَاعِيًا } , وَفِي حَدِيثِ { السَّائِبِ بْنِ شَرِيْكَ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ □ شَرِيْكَِي وَكَانَ خَيْرُ شَرِيْكَ لِي إِذَا رِي وَكَلِمَاتِي } أَي : لِي يُلَاحِظِي , وَلِي إِخَاصٌ فَقِيلَ : فِيمَاذَا كَانَتِ الشَّرِيْكََةُ بَيْنَكُمَا فَقَالَ : فِي الْأَدَمِ وَازْدَرَعَ رَسُولُ اللَّهِ □ بِمَكَّةَ عَلَى مَا ذَكَرَ مُحَمَّدٌ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِ الْمَزَارَعَةِ لِيُعْلَمَ أَنَّ الْكَسْبَ طَرِيقَ الْمُرْسَلِينَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ .

الْكَسْبُ طَرِيقُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

وَقَدْ مَرَّ عَمْرُ □ بِقَوْمٍ مِنَ الْقُرَاءِ فَرَأَهُمْ جُلُوسًا قَدْ نَكَسُوا رُءُوسَهُمْ فَقَالَ : مَنْ هَؤُلَاءِ ؟ فَقِيلَ : هُمُ الْمُتَوَكِّلُونَ فَقَالَ : كَلَّا , وَلَكِنَّهُمْ الْمُتَاكِلُونَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ , أَلَا أُنَبِّئُكُمْ مِنَ الْمُتَوَكِّلُونَ ؟ فَقِيلَ : نَعَمْ , فَقَالَ : هُوَ الَّذِي يُلْقِي الْحَبَّ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يَتَوَكَّلُ عَلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى عَنْهُ قَالَ : يَا مَعْشَرَ الْقُرَاءِ ارْقَعُوا رُءُوسَكُمْ وَاکْتَسِبُوا لِأَنْفُسِكُمْ . (...) وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ □ كَانَ بَرَّازًا وَعَمْرُ □ كَانَ يَعْمَلُ فِي الْأَدَمِ وَعُثْمَانُ □ كَانَ تَاجِرًا يُجَلِّبُ إِلَيْهِ الطَّعَامَ فَيَبِيعُهُ وَعَلِيٌّ □ كَانَ يَكْسِبُ عَلَى مَا رُوِيَ أَنَّهُ أُجِرَ نَفْسَهُ غَيْرَ مَرَّةٍ حَتَّى أُجِرَ

نَفْسَهُ مِنْ يَهُودِيٍّ { وَقَالَ □ لِلْوَازِنِ : زِنْ وَارْجِحْ , فَإِنَّا مَعَاشِرَ النَّبِيِّاءِ هَكَذَا
نَزِنُ }

كل أنواع الكسب المشروع مطلوب في الشرع

يقول أبو الحسن الشيباني (ثمَّ الْمَكَاسِبُ أَرْبَعَةٌ الْإِجَارَةُ وَالتَّجَارَةُ وَالتَّزْرَاعَةُ
وَالصَّنَاعَةُ وَكُلُّ ذَلِكَ فِي الْإِبَاحَةِ سِوَاءٍ عِنْدَ جُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ قَالَ عَلَيْهِ
السَّلَامُ { أَطْلُبُوا الرِّزْقَ تَحْتَ خَبَايَا الْأَرْضِ } يَعْنِي التَّزْرَاعَةَ وَقَالَ : { الزَّرْعُ يَتَأَجَّرُ
رَبَّهُ } , وَقَدْ كَانَ لَهُ فَدْكُ وَسَهْمٌ بِخَيْبَرَ فَكَانَ قُوْتُهُ فِي آخِرِ الْعُمُرِ مِنْ ذَلِكَ وَعَمَرَ
□ كَانَ لَهُ أَرْضٌ بِخَيْبَرَ يُدْعَى ثَمْعٌ , وَقَدْ كَانَ لِابْنِ مَسْعُودٍ وَالْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ

وَأَبِي هُرَيْرَةَ □ مَزَارِعُ بِالسَّوَادِ يَزْرَعُونَهَا وَيُؤَدُّونَ خَرَاجَهَا , وَكَانَ لِابْنِ عَبَّاسٍ

□ عَنْهُمَا أَيْضًا مَزَارِعُ بِالسَّوَادِ وَغَيْرِهَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ { مَا غَرَسَ مُسْلِمٌ
شَجْرَةً فَتَنَاوَلَ مِنْهَا إِنْسَانٌ أَوْ دَابَّةٌ أَوْ طَيْرٌ إِنَّا كَاتَمْتُ لَهُ صَدَقَةً } , وَفِي رِوَايَةٍ { وَمَا
أَكَلَتْ الْعَافِيَةُ مِنْهَا فَهِيَ لَهُ صَدَقَةٌ } وَالْعَافِيَةُ هِيَ الطُّيُورُ الطَّالِبَةُ لِأَرْزَاقِهَا الرَّاجِعَةُ
إِلَى أَوْكَارِهَا .

أما التَّجَارَةُ فيقول تعالى { وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ } الْآيَةُ , وَالْمُرَادُ
بِالضَّرْبِ فِي الْأَرْضِ التَّجَارَةُ فَفَقَدَمَهُ فِي الذِّكْرِ عَلَى الْجِهَادِ الَّذِي هُوَ سَنَامُ الدِّينِ

وَسُنَّةُ الْمُرْسَلِينَ , وَلِهَذَا قَالَ عَمْرٌ □ لَأَنَّ أَمْوَاتَ بَيْنَ شُعْبَتَيْ رَحْلِي أَضْرِبُ فِي
الْأَرْضِ أَبْتَغِي مِنْ فَضْلِ اللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُقْتَلَ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالَ عَلَيْهِ
السَّلَامُ { التَّاجِرُ الْأَمِينُ مَعَ الْكِرَامِ الْبِرَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } .

وَرُوِيَ عَنْهُ □ أَنَّهُ قَالَ { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُؤْمِنَ الْمُحْتَرِفَ } وَفِي الصَّحِيحِ

قَالَ □ { أَحَلُّ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبٍ أَيْدِيهِمْ } وَفِي الْحَدِيثِ { أَنْ رَجُلًا قَالَ :
يَا رَسُولَ اللَّهِ , ذُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ أُدْخِلُ بِهِ الْجَنَّةَ فَقَالَ : لِمَا تَسْأَلُ أَحَدًا شَيْئًا } وَقَدْ
وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ { مَنْ بَاتَ كَالًا مِنْ طَلَبِ الْحَلَالِ بَاتَ مَغْفُورًا لَهُ وَأَصْبَحَ وَاللَّهُ رَاضٍ
عَنْهُ }

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ } وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ : " لَا خَيْرَ
فِيمَنْ لَا يَجْمَعُ الْمَالَ فَيَقْضِي دَيْنَهُ وَيَصِلُ رَحْمَهُ وَيَكْفُ بِهِ وَجْهَهُ " وَقَالَ سُفْيَانُ رَحِمَهُ
اللَّهُ : (لَيْسَ مِنْ حُبِّكَ الدُّنْيَا أَنْ تَطْلُبَ فِيهَا مَا يُصْلِحُكَ) .

خاتمة:

إن المتتبع لموضوع التنمية في الإسلام يدرك بغير عناء ، أن هذا الدين
بعقيدته وشريعته وأخلاقه وعموم قيمه، من أقوى الدوافع نحو التنمية والعمارة
والكسب والعمل الصالح والتقدم بالإنسان نحو الخير. وأي نتيجة معاكسة في بلاد
المسلمين لهذه المعاني إنما تقع بسبب الجهل بحقيقة هذا الدين، أو بسبب استبعاده
عن قيادة حياة الناس في هذا المجال، ومحاولة تحريكهم نحو آفاق التنمية بمفاهيم
وفلسفات غريبة وحوافز لا تلامس زر التحكم في قلوب المؤمنين .

والمنصف يقف على حقيقة جليلة وواضحة، وهي أن التربية الإسلامية
بمفهومها العام خير خادم لما نصبو إليه من أهداف تخليق الحياة العامة، وتحريك
الماء الراكد في واقعنا، وإصلاح مختلف جوانب الخلل في سيرنا. فالتربية الإسلامية
تربي على حب العلم وترسم للمسلم منهجا قوامه: إن كنت ناقلا فالصحة، وإن كنت
مدعيا فالدليل، فهي عدوة للخرافات والأساطير والسحر والشعوذة. وتربي على حب
العمل الصالح، وعلى الإيجابية في الحياة ودفع القدر بالقدر، والجرأة على اقتحام
المستقبل، لأن أجله لا يتأخر ورزقه لا يأخذه غيره فلا يخيفه شيء، فهي عدوة
للجبرية والركون إلى الكسل والخمول والسلبية والتواكل .

وأما الزهد المطلوب فهو زهد القلب في التعلق بالدنيا وحبها إلى حد عبادتها
من دون الله والتضحية بالمبادئ والأخلاق لنيل متاعها، هذا الزهد هو الذي يعطي
للتنمية ميزتها وخصوصيتها في الإسلام، فلا تنقلب إلى صنم يستعبد الإنسان
ويدمره، إنه الزهد الذي يجعل الدنيا مزرعة للأخرة .

والتربية الإسلامية تربي على الإحساس بقيمة الوقت، فالمؤمن لا يدري متى
يرحل للقاء ربه، وتسويف أعمال الخير دفع لها إلى وقت لا يملكه، فمفروض فيه
الاجتهاد والاعتناء ما وسعه ذلك لأن الليل والنهار يعملان فيه وينبغي أن يعمل
فيهما، فهو يسابق الزمن ويخشى أن تحول أقدار الغد دون ما هو متاح اليوم، فيغتتم

حياته قبل موته وفراغه قبل شغله وصحته قبل مرضه وشبابه قبل هرمه وغناه قبل فقره.

ولكل ما سبق وغيره، ينبغي لكل غيور يريد الخير لأمته والتقدم لمجتمعه والتنمية لبلاده وال عمران في ديار المسلمين، أن يجعل التربية الإسلامية أساسا للاطلاق، وسبيلا في السير ومقصدا للركب. كما ينبغي أن يعلم كل من يحاول استبعادها أو التقليل من شأنها وإضعاف أمرها في المسلمين، أنه فضلا عن عداوته الصريحة لله ورسوله، فهو عدو لأمته، عدو للتنمية والتقدم، عدو لتخليق الحياة العامة، عدو لتاريخ الوطن وحاضره ومستقبله.

آفاق المادة الإسلامية التنموية في ظل منظومة معوقة

ذ. عبد المجيد بنمسعود
(مفتش التعليم الثانوي –
أكاديمية – وجدة)

مقدمات بين يدي الموضوع:

لا يجادل أحد في أن هاجس التنمية، يكاد يتصدر – في العصر الحديث – مجمل الهواجس التي تؤرق فكر النخبة والعامّة على حد سواء، على اختلاف في الدوافع، وفي أسلوب التعاطي مع هذه المسألة التي تعد مؤشرا بارزا، بل وصارخا على وجود مشكلة ضخمة، وأزمة معقدة خانقة، إنها ما يطلق عليه عند الغالبية العظمى: مشكلة التخلف.

غير أن الذي يقع فيه التباين ويحتدم فيه الخلاف، هو نوعية الرؤية التي تصدر عنها كل طائفة في تحليل هذه الظاهرة والكشف عن جذورها ومكوناتها، بل وحتى في حصر ملامحها وتجلياتها، ومن ثم في تحديد صيغ الفكك منها وتجاوز مخلفاتها.

وقيل المضي في صياغة ما أنا بصدد من مقدمات، أود أن أؤكد على أمر لم يعد سرا بالنسبة للمهتمين العارفين بمكونات البناء الثقافي والاجتماعي، وما يجري فيه من صراع وتدافع، على مستوى التوجهات الفكرية والاختيارات الثقافية التي يراها كل تيار جديرة بالاعتبار، لكونها في نظره معبرة عن الحقيقة والواقع في ديناميته وتفاعله. يتمثل هذا الأمر في أن التيار الدخيل على المجتمع، الغريب عن تاريخه، المنسلخ عن سيرورته الحضارية، يعبر عن موقف في غاية الاستفزازية،

مفاده أن عملية التنمية والنهوض من هوة التخلف لا صلة لها مطلقا بالقيم، وأنها لا تعدو أن تكون عملية ذات صبغة تقنية بحتة ليس إلا.. وهي نظرة ممعنة في السطحية، غارقة في التبسيط لفضية هي غاية في العمق والتعقيد. وإنه لمن نكد الأيام، أن يستتب الأمر لهذا التيار – ولو إلى حين – ويمكن لأصحابه، إلى الحد الذي يضطر معه أصحاب التيار الأصيل، إلى بذل جهد جهيد لإقناع هؤلاء بعكس ما يظنون، وإن كان ذلك في حكم المستحيل، بسبب نزعة التعصب المطبقة على عقولهم، وإصرارهم على التمسك النهائي بموقفهم، وعدم الترحيح عنه قيد أنملة. إن خطاب التنمية لدى هؤلاء، خطاب لا يخرج عن دائرة الدعائية والاستهلاك، لأنه لا يملك أي رصيد على أرض الواقع، لسبب بسيط تمت الإشارة إليه، وهو اعتقاد أصحاب ذلك التيار بسلامة المدخل التقني الصرف إلى عالم التنمية. وهو اعتقاد ظاهر البطلان سرعان ما يتناثر أمام الأدلة القوية والحجج الدامغة، التي يقدمها أصحاب التيار الأصيل الذي يؤمن إيمانا راسخا بأن عملية التنمية لا مناص لها – إن أريد لها النجاح – من أن تتخلق في رحم المجتمع بما هو كيان متميز ذو منطق فلسفي خاص، ومنظومة قيمية مستقلة، ووجدان تاريخي متجذر في نفوس وذاكرة أهله، وإنه في حالة انعدام اعتبار هذه الشروط من قبل الآخذين بزمام الأمر، نكون بإزاء عملية عبثية لا طائل من ورائها.

إن مظاهر النزعة الادعائية والاستهلاكية تتجلى بشكل سافر في كون أصحابها لا يأبهون لما تحمله التنمية التي يدعون إليها، من طابع الاستلاب لأفكار ومذاهب الغرب، ولما تجلبه مشاريعها من تعويق لإمكاناتنا الذاتية وشل لفاعلية الإنسان عندنا، بتحويله إلى مجرد آلة مسخرة مأمورة تتحرك في بيئة مستعارة، وضمن نموذج يضرب بمشاعرها وخصوصيتها الثقافية عرض الحائط، ولا يهتم هؤلاء بعد ذلك إلا ما يجنونه من ربح شخصي يضيفونه إلى حسابهم الخاص، أما أن يساهم مسلسل التنمية في التحرير التدريجي للأمة من إसर التبعية، بجعل عملية التنمية انبثاقا أصيلا من ثقافتنا تعبيرا عن

طموحاتها، فذلك غير وارد عند أصحاب النزعة الاستهلاكية، لأنهم بطبيعة نظرتهم الضيقة وشخصيتهم المدججة بعيدون عن ذلك الهم بعدا سحيقا. إن الفرق بين خطاب التنمية الأصيل، وخطاب التنمية الهجين هو فرق شبيه بالفرق بين من يريد أن يشيد قصرا على الرمال ومن يريد أن يقيم بنيانه على أركان راسخة لا تنال منه عوادي الزمن.. أو بالفرق بين شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء توتّي أكلها كل حين بإذن ربها وبين شجرة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار.

إن الفرق بين الخطابين فرق جذري شامل، بدءا من الجهاز المصطلحي الذي استعمله كل منهما، وما يرتبط به من رؤية تصورية، مروراً بالمجالات المستهدفة بالتنمية، وصولاً إلى حجم النطاق أو الدوائر التي يتوجه إليها فعل التنمية، أو تصويبها ثمارها.. إلخ. مما سيتضح بنوع من التفصيل فيما يأتي من الصفحات – بإذن الله – عند الإجابة عن السؤال الأساسي: أي تنمية نريد؟. إن على رأس الأخطاء الفادحة التي ترتكب حين الحديث عن "التنمية" سوق هذا الحديث مساقاً عاماً غير مقيد ولا مشروط، وهو ما يقع في الخطاب الإعلامي بشكل سافر غريب، مما يوحي لجماهير الناس، وكأن التنمية جسم هلامي غير محدد القسّمات ولا محدد الهوية والانتماء، وهو أمر في غاية العبثية والاستخفاف بالإطار المجتمعي الذي يزعم ممارسة فعل التنمية فيه وعليه، ولا أقول عبره وبواسطته، لأن هاتين العبارتين تفرضان إشراك ذلك الإطار، باعتباره وسيلة التنمية وغايتها في آن واحد، إن هذه الحقيقة تفرض علينا على وجه الحتم، عند إثارة مسألة التنمية أن نطرح سؤال حيويًا وهامًا، ألا وهو: أي تنمية نريد؟. لقد بلور الدكتور الشهيد البوشيخي هذا السؤال – المفتاح في ثلاثة أسئلة تفصيلية مشروعة هي: ماذا ننمي؟ ولماذا ننمي؟ وبماذا ننمي؟¹.

ويمكن إجمال الأجوبة التي قدمها الدكتور الشهيد البوشيخي على تلك الأسئلة، في كون الموضوع الأسمى الذي ينبغي أن تنصب عليه جهود التنمية، إنما

¹ - المضامين التنموية للثقافة الإسلامية، محاضرة ألقيت بجمعية النبراس الثقافية ضمن ندوة "الثقافة والمجتمع". 29 ذو القعدة 1418هـ 28 مارس 1998.

هو الإنسان في جميع أبعاده، على اعتبار أن "الثروة البشرية هي أعظم ثروة" وأن "الذي يحدد نسل الإنسان ويكثر نسل الأبقار، ما ترك من الجهل شيئاً" على حد تعبيره. والمدخل إلى تنمية هذا الإنسان إنما هو تركية نفسه عن طريق العبادة وتوسيع مداركه من خلال رفع مستواه العلمي، يقول الله تعالى (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون) 'ويقول الله تعالى (واتقوا الله لعلكم ترحمون)².

يقول الأستاذ الشاهد البوشيخي في شأن العلم كموضوع للتنمية إلى جانب الإنسان: "موضوع التنمية موضوع العلم، إذا حضر حضر ما سواه وإذا غاب غاب ما سواه" على أساس أن يصطبغ هذا العلم، شرعياً كان أم مادياً أم إنسانياً بصبغة الوحي، التي تعطيه الحصانة من الزيغ وتمده بإمكانيات لا حد لها للتراث والعمق والتوسع، على اعتبار أنها هي المهماز الحقيقي للفطرة التي جبل الله سبحانه وتعالى الإنسان عليها. أما الجواب عن السؤال: لماذا ننمي؟ فإنه يتمثل في هدف إسعاد الإنسان وما سوى الإنسان كما عبر الدكتور الشاهد البوشيخي، وإلحاق الرحمة بالجميع. فإذا كان الإنسان المسلم يتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن الله سبحانه وتعالى قد خاطبه بقوله تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)³ أما الإجابة عن السؤال: بماذا ننمي؟ فإنها تجد تجسيدها في كل الوسائل والقنوات والمؤسسات التي توظف الفرد والمجتمع، شريطة أن تستقي مادتها من القرآن والسنة، لأنهما يمثلان روح الأمة، الذي من دونه تضرر فتذبل فتموت، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه..."

وإنه مما يحز في النفس، أن خطاب التنمية في نطاق مجتمعاتنا، أو غالبيتها العظمى، يتأرجح بين موقفين كلاهما يعتبر إهدارا لطاقت الأمة، وزجا لها في نفق مظلم مسدود. أما الموقف الأول فهو الموقف المانع الذي لا لون له ولا طعم، وهو

¹ - البقرة: 21

² - الحجرات: 10

³ - الأنبياء: 107

الذي وصفته قبل بالهلامي. وأما الموقف الثاني، فيتمثل في الاجتهاد إلى أقصى الحدود، في ربط تنمية البلد الأصيل بعجلة التبعية للأجنبي، ليدور حيث دار، ملغيا أي اعتبار لمقومات الأمة وحاجات إنسانها وتطلعاته الخاصة، الأمر الذي من شأنه أن يعمق هوة التخلف والعجز، بقدر ما يعمق الشعور بالاعتراب لدى الإنسان المسلم كفرد ومجتمع وأمة على حد سواء، ويخلف جراحا غائرة، لا مجال لبدء التنامي وشفائها، إلا بوضع وإرساء دعائم استراتيجية إنمائية روحها الإسلام الذي يكرم الإنسان، ويحثه على عمارة الأرض وفق هدى الله ومنهجه القويم، الذي يضمن التوازن ويؤمن السعادة في الدنيا، والخلص في الآخرة.

إن وسائل التنمية في ظل التبعية للآخر، تصطبغ لا محالة بصبغة الغرب في جميع أبعادها ومستوياتها. إن خلاصة المناخ الثقافي الذي يصنعه مسلسل التبعية، أو بتعبير أدق عجلتها الساحقة، تفضي لا محالة إلى إنتاج إنسان يحاكي النموذج الغربي في مثالبه الفكرية، ويعيش اضطرابه القاتل، وربما اضطرابا أشد عتوا، لكونه يتحمل عواقب شروده وضياعه الفكري والمقصدي، ويزيد عليه بشعور الاغتراب عن ذاتيته.

إن طرح سؤال التنمية، لا بد أن يتخذ صبغته الجادة في مجتمعنا، وأن يبرح مرحلة المراوحة والضياع التي تنتهي لا محالة – إن وقع الإمعان فيها والإصرار عليها – إلى الإبادة الحضارية، أو إلى تعميق العبودية للغرب. والطرح الجاد لا بد أن يمر عبر الإجابة الصريحة والجادة عن السؤال الهام: "أية تنمية نريد؟" وهو مرتبط ارتباطا عضويا بالسؤال من نحن؟.

إنه لا مناص عند مواجهة المشكلة بهذا الشكل من الاختيار بين منظورين للتنمية، إما المنظور الإسلامي وإما المنظور الغربي للتنمية، واختيار الأول يعني العودة إلى الذات والاستفادة مما يتيح الارتباط بالمنع الذي لا يغيض، منبع الإسلام الذي يسمح بتفجير طاقات الإنسان والمجتمع إلى أقصى الحدود في إطار التوازن والحفاظ على إنسانية الإنسان وصون كرامته.

أما اختيار الثاني، فيعني اختيار الانسلاخ من الذات والذوبان في الآخر، وتلك مصيبة المصائب التي فرضت على كثير من الشعوب نتيجة صفقة بيع وشراء

خاسرة أبرمتها بعض الأنظمة مع المركز الأوربي (الغربي) وكمثال صارخ على ذلك: تركيا. إن الاختيار بين هذين المنظورين هو اختيار بين منظور واسع الأفق يراعي الشمول والحق والعدل، وبين منظور ضيق الأفق محدود الأبعاد، قائم على قاعدة مهزوزة من الذرائعية والميكانيكية.

يقول الأستاذ منير شفيق مميزا بين هذين المنظورين للتنمية: "فعندما تكون النظرة الأساسية قد وضعت للحياة هدفا يرمي إلى تحقيق أقصى درجات الرفاه المادي أو أقصى مستويات الثروة والقوة المادية، سوف يترتب على ذلك نهج كامل في التفكير والحياة وبناء العلاقات.

أما إذا كانت النظرة الأساسية شاملة لمختلف الحاجات والأهداف الأساسية للإنسان – الروحية والفكرية والنفسية والمادية – وعلى مستوى عالمي يشمل كل الشعوب، وعلى مستوى كل مجتمع، فإن السعي وراء الثروة أو الإنتاج أو القوة المادية، سوف يهبط إلى مستوى أدنى من ذلك المستوى، لكي يتوازن مع السعي لتحقيق الأهداف الأخرى"¹.

وأعود إلى النقطة المتعلقة بالجواب على السؤال: "بماذا ننمي؟ لأقول بأن مجمل الوسائل تصب في الإنسان الذي هو وسيلة التنمية وغايتها، فالتربية الأسرية والمدرسية، وما تبثه وسائل الإعلام، كل ذلك يهدف إلى تشكيل عقل الإنسان وصياغة رؤيته للحياة وبناء شاكلته الثقافية، ومن ثم تزويده بأسلوب العمل والسلوك واتخاذ المواقف مما يجري حوله من أحداث.

وإذا كان الاتفاق يكاد يكون تاما بين جميع الشعوب، أو بالأحرى خبراء التربية والتنمية فيها، على أهمية الإنسان المركزية في التنمية، وهو ما يسمى في الأدبيات والتقارير والاستراتيجيات بـ"الموارد البشرية" في مقابل الموارد المادية، فإن الاختلاف الحاد والصارخ يفرض نفسه فيما يتعلق بأسلوب تشكيل الإنسان وبنوعية الأهداف التي ترسم له كإطار للعمل والممارسة، وكرسالة تبرر وجوده على هذه الأرض.

¹ - الإسلام في معركة الحضارة، دار النشر للكلمة، ط.1، 1981 بيروت لبنان.

وسأتناول فيما يلي موقع المنظومة التعليمية كوسيلة للتنمية، وما إذا كانت بوضعها الحالي تشكل محضنا ملائما لصنع التنمية موفرا لشروط ذلك، أم أنها – على العكس من ذلك – تعوقها وتضع العراقيل في طريقها.

المنظومة التعليمية المغربية؛ هل هي وسيلة تنمية

أم تعويق للتنمية؟:

من المعلوم لدى خبراء التربية، أن أي منظومة تربوية يراد لها أن تكون جديرة بكونها كذلك، لا مناص لها من التوفر على شرط أساس، إنه شرط الاتساق المنطقي والانسجام الفلسفي بين مختلف العناصر والمكونات التي تدخل في نسيج تلك المنظومة. إن أي مردود يُتوخى إخراجها من صلب تلك المنظومة، رهين بذلك الاتساق والانسجام، بغض النظر عن موافقة الرؤية الفلسفية التي توجه المنظومة للحق أم لا.

أما المنظومة التعليمية الموافقة للحق المنسجمة مع الفطرة، فلا بد أن يقوم بناؤها على دعامين:

الدعامة الأولى هي: توفر مشروع تربوي واضح المعالم والأهداف، تسنده فلسفة تربوية مؤسسة على حقائق الوحي.

أما الدعامة الثانية: فهي بناء منهج تربوي متكامل العناصر يحافظ على الثوابت ويراعي المستجدات.

غير أن واقع المنظومة، يكشف بجلاء عن انعدام الدعامين المذكورين، ومن ثم عن انتفاء مطلب الاتساق المنشود، وهو ما يجعل هذه المنظومة معرضة للإصابة بتشوهات عديدة في هيكلها وأطرافها ومفاصلها، ولحمل بذور أو جراثيم التعويق في رحمها وأحشائها، بحيث لا يخرج سليما معافى من مستهدفها إلا من رحم الله.

إن الحكم على "المنظومة" التعليمية بعدم الاتساق، ظل ساريا عليها، عبر كل المراحل التي عاشتها منذ بداية خروج الاستعمار العسكري إلى الآن. ولربما كانت المرحلة الحالية، أشد إخلالا من ذي قبل بمطلب الاتساق والانسجام. ونظرة فاحصة

إلى "الميثاق الوطني للتربية والتكوين" الذي يراد له أن يقود مسيرة التعليم، على مستوى التصور ورسم الأهداف العليا، في المرحلة المقبلة، يكشف عن ازدواجية في الولاء العقدي والتصوري المرجعي، على مستوى التصريح، وعن وحدة في ذلك الولاء، على مستوى الروح العامة المهيمنة على مجمل مفاصله ودعاماته، واختياراته الكبرى. وترجم هذه الوحدة نفسها من خلال الإلحاح البارز على الدعوة إلى احترام المواثيق والاتفاقيات الدولية. ويكفي أن نشير في هذا الصدد إلى ما ورد في "الميثاق" بالصفحة الثالثة من دعوة إلى انفتاح المجتمع المغربي "على معطيات الحضارة الإنسانية العصرية، وما فيها من آليات وأنظمة تركز حقوق الإنسان وتدعم كرامته" وإلى ما ورد بالصفحة الخامسة حيث يحدث "الميثاق" على أن: "تحتزم في جميع مرافق التربية والتكوين المبادئ والحقوق المصرح بها للطفل والمرأة والإنسان بوجه عام، كما تنص على ذلك المعاهدات والاتفاقيات الدولية المصادق عليها من لدن المملكة المغربية. وتخصص برامج وحصص تربوية ملائمة للتعريف بها، والتمرن على ممارستها وتطبيقها واحترامها".

إن المفروض في المنظومة التعليمية، لكي تكون تنموية بامتياز، أن تضطلع بمهمة التشكيل المحكم لشخصيات المتعلمين، وذلك بتنمية مختلف القدرات والمواهب والملكات والاستعدادات، كل بحسب ما خلق له، إذ كل ميسر لما خلق. ولن يكتب التوفيق للمنظومة التعليمية في إنجاز هذه المهمة الحيوية الرائدة، إلا بشرط توفر عنصر التلاحم بين المكونات والأركان، التي تنهض عليها هذه المنظومة من أهداف ومحتوى وطرائق وأساليب التدريس، فضلا عن المدرس الذي يمثل قطب الرchy ضمن كل ذلك.

ويجدر التنبيه هنا على حقيقة جوهرية، مفادها أن المقدار الذي تفقده المنظومة من القدرة والكفاءة في تحقيق أهدافها المنوطة بها في تنمية الناشئة وإخراج مكوناتها من القوة إلى الفعل، يتناسب طردا مع مقدار ما يعترها من عوامل التناقض والاختلال، وهذه العوامل هي عينها ما تصبح المنظومة بسببه معوّقة، ثم معوّقة بفعل كونها غذاء لأجيال المتعلمين، تنتقل عبره العلل

والتشوهات، فالأمر في ذلك شبيه بما تحمله الجينات الوراثية من أمراض تنتقل من الأم إلى الوليد، مع ما هنالك من فوارق واضحة.

وسأقدم فيما يلي بعض مظاهر التعويق في المنظومة التعليمية.

بعض مظاهر التعويق في المنظومة التعليمية:

إن أول ما يسفر عنه فحص هذه المنظومة وتشريحها من منظور الفلسفة التربوية الإسلامية، هو أنها منظومة عمياء، لأنها تنظر إلى مستهدفها على خلاف ما هم عليه في الواقع، أو أنها تعمى عن إبصارهم باعتبارهم هوية متميزة لها وجودها الخاص وكيانها الأصيل، واحتياجاتها الجوهرية. والسبب في ذلك راجع إلى أن المنظومة تستعمل منظارا مستوردا، يشوه ما وراءه، ويحجب بدل أن يشف ويكشف، إنها الفلسفة التربوية المستوردة أو الهجينة. وقد سبق أن ألمحت إلى ذلك.

المظهر الثاني من مظاهر التعويق الذي تشكو منه المنظومة هو كونها عرجاء، أو بالأحرى بتراء، لأنها تسير على رجل واحدة، وما ذلك إلا بسبب ضمور الجانب الروحي الوجداني في كيانها. إن الطابع المادي الجاف يلقي بظلاله الكثيفة عليها. وغير خاف ما يورثه ذلك من تفلت للنفوس بفعل تضخيم الجانب الغريزي، وما يستتبعه ذلك من إهدار وضياع، ومن انهيار وبوار في نهاية المطاف. يقول الدكتور ماجد عرسان الكيلاني مبينا عواقب انحسار الروح لحساب المادة: "أما إذا انحسرت إرادة العقيدة والقيم، وهيمنت إرادة الطعام وإرادة النكاح، فصارتا هما الهدف، وما يقابلها في "مثل السوء" هو المثل الأعلى، فإن التربية تكون قد خرجت عن مسارها السليم. ولذلك فإن نظم التربية التي تجعل الرفاهية المادية وزيادة الدخل وثقافة الاستهلاك أسمى درجات المثل الأعلى الذي تتحرك نحوه إرادة المتعلم، لا تعتبر في الواقع - هي النموذج لنظم التربية، لأنها تهمل إنسانية الإنسان. إن التربية التي تجعل مثلها الأعلى هي الرفاهية المادية وثقافة الاستهلاك،

تفرز عددا كبيرا من الإيرادات الفرعية الفاسدة ذات الآثار السلبية مثل إرادة الدنيا (منكم من يريد الدنيا)¹

(فاعرض عن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا)² وإرادة الفحشاء:

(فالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد).³

إن المظهر المتمثل في انحسار "إرادة العقيدة والقيم" لحساب، "إرادة الطعام وإرادة النكاح" يجد تجسيده وتجلياته فيما تشحن به محتويات المنظومة المعرفية من قيم متفلتة تعزف على أوتار الغريزة في المتعلمين وتضخم فيهم جانب الطين، بما يستتبعه ذلك من تبدل في الإحساس، وانطفاء للفكرة وضعف وتلاش في الحيوية والمبادرة. ومما يعطي للقيم الفاسدة والمعارف المغشوشة سلطاتها الخطيرة، هو كونها تقدم في أبواب الفن وقوالب التفكير الفلسفي المنطقي الرصين الذي يخلب الألباب، التي تعاني من فقدان الحصانة العقديّة، ومن ضعف الحاسة النقدية القادرة على غربلة الأفكار والتمييز فيما بين السليم والسقيم. إن تكثيف عملية القصف الموجهة إلى عقول التلاميذ ووجدانهم، تصيبهم بإعاقات بليغة يجرون عواقبها الوخيمة على حياتهم وتجعل منهم عامل تثبيط وتلويث وإعاقة لسير المجتمع. ويرتبط بالمظهر السابق من مظاهر الإعاقة والتعويق في بنية المنظومة التربوية ذلك المتعلق بالمدرس، الذي لا نخطئ الصواب، إذا قلنا بأنه يمثل قطب الرحي فيها، فهو بحسب ما يحمله من رؤى وتصورات، وما يحظى ويتمتع به من قدرات، يعتبر عنصرا فاعلا ومؤثرا، إما في اتجاه الهدم أو في اتجاه البناء. ومما يخلف شعورا بالأسى والامتعاض أن منظومتنا التعليمية لم تعدم في جميع أطوارها، فئات من المدرسين في مختلف المواد، يمارسون عملية الهدم بوعي أو بغير وعي، بالحال أو المقال أو بهما معا. والسبب في ذلك كامن في أن المسؤولين عن المنظومة التربوية، لم يجعلوا في حسابهم أهمية الجمع بين القوة والأمانة كمعيار لاختيار المدرس الذي يكلف بأمانة إعداد الأجيال.

¹ - آل عمران: 105

² - النجم: 29

³ - هود: 78

في ظل كل المعوقات التي تعاني منها المنظومة التربوية، وغيرها مما لم أذكره، ماذا عسى أن تقدمه المادة الإسلامية في المجال التنموي؟ بتعبير آخر ما هي آفاق مادة التربية الإسلامية التنموية في ضوء المعطيات السالفة الذكر؟.

آفاق المادة الإسلامية التنموية في ضوء ما سبق:

إن ما سبق من معطيات وحقائق، يضعنا أمام حقيقة دامغة، هي أن معوقات "المنظومة" التعليمية تشكل في حد ذاتها معوقات للتنمية، إن واقع عدم الانسجام بين مكونات "المنظومة"، أو بين محتوياتها القيمة يمثل عامل اضطراب وتشويش على عقليات المستهدفين، يزيده تفاقما وحدة ما تشكو منه تلك "المنظومة" من ازدواجية لغوية قاتلة، تفعل فعل السم الذي يحد من فاعلية الفكر وانطلاقه في مجالات رحبة للإبداع والابتكار.

■ بين منهج التربية الإسلامية والمادة الإسلامية:

إنه لا بد ليقوم تحليل القضية على قاعدة من الوضوح، لا بد من التمييز، بين ما تختزنه التربية الإسلامية بالمفهوم الواسع، أي كإطار متكامل من المعارف والخبرات التي تخاطب الإنسان في أبعاده كلها، في ضوء المظاهر الثلاثة للعبادة: (المظهر الديني والمظهر الاجتماعي والمظهر الكوني)¹، وبين المادة الإسلامية كما هي مقصودة في موضوع الندوة².

فالتربية الإسلامية بالمفهوم الذي أسلفته، تملك آفاقا رحبة وقدرات هائلة على صنع نموذج الشخصية المسلمة المتصفة بالرسالية، المتسلحة بوعي حاد بقضايا أمتها، المسخرة لطاقتها، وما هو متاح لها، إلى أقصى حدود التسخير.

¹ - كما استعملها الدكتور ماجد عرسان الكيلاني - فلسفة التربية الإسلامية مجلة الهدى - العدد 21،

² ص: 16 - ندوة المادة الإسلامية في التعليم المغربي، وقضية التنمية من تنظيم جمعية خريجي الدراسات الإسلامية

العليا والجمعية المغربية لأساتذة التربية الإسلامية بالرباط بتاريخ 14 و 15 أبريل 2001.

ويتراوح ما يمكن أن تحققه التربية الإسلامية كمنهج واسع متكامل في تعاملها مع الإنسان، بين مستويين للعطاء، أو كما عبر عن ذلك د. ماجد عرسان الكيلاني بين حدين: أدنى وأعلى، مع الحفاظ على التمييز والتفوق على النماذج التي شكلت في غير مدرسة الإسلام، حتى مع نزول العطاء إلى الحد الأدنى. يقول في ذلك الدكتور ماجد عرسان الكيلاني: "يضع القرآن الكريم لنسبة "المخرجات" المتوقعة من الأمة المسلمة حدين اثنين: حداً أعلى يتحقق إذا أحسنت الأمة استثمار المدخلات المبذولة، وحداً أدنى إذا كان هناك ضعف في الخبرات والمهارات اللازمة لاستثمار "المدخلات". وإلى الحدين المذكورين يشير قوله تعالى: (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبون ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون. آلان خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين)¹.

أما ما يمكن للمادة الإسلامية أن تقدمه، فهو لا يمكن أن يرقى إلى ما يتيح منهج التربية الإسلامية، ولكنه مع ذلك، يستطيع أن يقدم الكثير في مجال تأمين جملة من العناصر الهامة والشروط الضرورية للتنمية، والحفاظ عليها على حد سواء، ويتأسس هذا الحكم على حقيقة نفسية هامة، تتمثل في اقتران التنمية بالتزكية في سياق الرؤية الإسلامية. وإن استنطاق مفهوم التزكية في اللغة، وفي اصطلاح علماء الإسلام يؤكد لنا هذه الحقيقة. فقد عرفت التزكية لغويًا "بأنها الإصلاح والتطهير والتنمية. يقال: يزكي من يشاء أي يصلح. وتزكيهم بها: أي تطهرهم. وزكاة المال: تطهيره وتثمينه وإمناؤه. والزكاة: الطهارة والنماء والبركة"².

¹ - الأنفال: 65 - 66

² - د. ماجد عرسان الكيلاني - مناهج التربية الإسلامية والمربون العاملون فيها. مؤسسة الريان - بيروت - لبنان ط. مزبدة ومنقحة (؟) 1419/1998 ص 134 (نقلا عن ابن تيمية، الفتاوى، كتاب السلوك ج 10 ص 96).

أما اصطلاحاً - فقد عرف المفسرون والعلماء الأوائل مصطلح التزكية. طبقاً لمستويات المعرفة والتطبيقات التي خبروها في أزمته وأمكنته. فهي عند الطبري - مثلاً - تعني: تطهير الناس من الشرك وعبادة الأوثان، وتمييزهم بتكثيرهم بطاعة الله. وعند ابن تيمية هي تربية القلب وتمييزه بالكمال والصلاح، وذلك بحصول ما ينفعه ودفع ما يضره. وتزكية النفس بالصالحات وترك السيئات، أو هي إزالة الشر وزيادة الخير¹.

ويجدر التنبيه هنا إلى أن مفهوم التزكية وإن كان شاملاً لجميع أبعاد الوجود الإنساني، في المفهوم الإسلامي، إلا أن تزكية المحتوى الداخلي للإنسان تظل هي المنطلق والمحرك لتزكية مختلف جوانب الوجود الأخرى، ذلك الوجود الذي يشكل البناء الحضاري أو العمران البشري إحدى حلقاته الأساسية.

● إن أعلى وأرقى وأشرف شيء أو عنصر تستهدفه عملية التنمية (التزكية) هو قلب الإنسان، الذي عليه المدار في صلاح ما عداه، وهذه حقيقة ناصعة ينطق بها حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: "ألا وإن في الجسد مَضْغَةً إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب"².

● وإن المدار في تزكية هذا القلب وتمييزه، إنما هو على تحريره من العبودية لما سوى الله عز وجل. يقول الدكتور البوشيخي: بأن "طبيعة العلم الشرعي تنموية، لأنه يحرر الإنسان تحريراً كاملاً، يحرر عبد الله مما سوى الله عز وجل"³. ويرتبط ارتباطاً حميماً عضوياً بهذا الجانب من التنمية أو التزكية "تزكية إنسان التربية الإسلامية من مرضى الطغيان والاستضعاف" وتنمية حالة "الوسطية" التي تمثل العافية والصحة النفسية والسلوكية. والطغيان مرض نفسي يصيب النخبة القوية، فتعطى وتتجاوز رتبها الإنسانية إلى منزلة التأله - أي ادعاء ملكية "الأشياء" والتصرف بمصائر "الأشخاص". أما "الاستضعاف" فهو

¹ - المرجع السابق (ص: 96).

² - صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه.

³ - المصامين التنموية للثقافة الإسلامية / مرجع سابق...

أيضا مرض نفسي يصيب الأكثرية – فيفقدنا إنسانيتها ويحيلها إلى قطعان بشرية مدججة لا تملك شيئا، ولا تشارك في تقرير مستقبلها ومصيرها. وأما "الوسطية" فهي العودة بكل من الطغاة والمستضعفين إلى حالة العافية التي تجسدها طاعة الله، وإفراده بالملكية والتصرف في مظاهر الحياة الدينية والاجتماعية والكونية. ومحور هذه الوسطية، هو الاسترشاد بقيم العدل، وما ينفرع عنه من قيم تشيع الحرية والصلاح والتقدم¹.

• والإسلام بالقدر الذي يوجه عنايته لتزكية القلب وتطهيره وتحليلته، ليخلص لرب العالمين، فيتحرر من كل نزعة إلى الاستكبار أو الاستضعاف، يشمل بهذه العناية قوى التدبر والتفكر والاعتبار، عبر استحثاث الإنسان إلى شحذها باستعمالها فيما هي ميسرة له ومهيأة لإدراكه. ومن المعلوم أن استجابة الإنسان المسلم لهذا التوجيه، كوجه من وجوه التعبد لله عز وجل، هي التي أثمرت تألق العقل المسلم في مضمار الكشف العلمي والتعامل الذكي مع ظواهر الكون والتاريخ، مما تمخض عن ذلك الاكتشاف الرائد لقواعد المنهج التجريبي وكذا لعلم العمران البشري، ولم يكن ذلك ليحصل، لولا ذلك التفاعل العميق مع كتاب الله عز وجل والنفوذ إلى أعماق دلالاته، والتقاط إشارات بوعي ذكي وبصيرة نفاذة.

• وليتكامل النسق القيمي الإسلامي في أبعاده التنموية، فإنه يلتفت إلى ما من شأنه أن يجعل الكيان الإنساني مؤهلا للدخول في علاقات إيجابية بناءة – تقتضيها وظيفة الاستخلاف وعمارة الأرض – تستوعب المحيط الاجتماعي الإنساني استيعابها للمحيط البيئي والكوني، ليستقيم الكل ويستوي على قاعدة من التوازن والانسجام، تؤمن سلامة البيئة وسلام المجتمع على حد سواء. إن جملة واسعة من القيم التي يعمل الإسلام على غرسها في نفوس أفراد المجتمع

¹ - د. ماجد عرسان الكيلاني/ مرجع سابق (ص: 135-136).

المسلم، كفيلة بتحقيق كل ذلك، فهي التي تتأسس عليها "الأصول
النفسية للعملية التكافلية التنموية"¹.

إن قيما من قبيل الأخوة والرحمة والإيثار والعفو والعدل والإحسان والتقوى،
والصدق والوفاء، والشعور بالأمانة وغيرها، تشكل الأرضية الصلبة وصمام الأمان
الكفيلين بنجاح أي مشروع تنموي يعلن في الناس، شريطة استيفاء جميع العوامل
الضرورية للتنمية.

• من خصائص النسق القيمي الإسلامي ومميزاته:

وإذا كانت بعض القيم التربوية – التنموية مشتركة بين جميع الشعوب، نظرا
لوجود بعض الموارث الثقافية المترسبة فيها من بقايا تعاليم الديانات، فإن ما
يميز النسق القيمي الإسلامي عن غيره، إضافة إلى صفة الربانية، صفة
التكامل والشمول التي تستغرق كل أبعاد الوجود الإنساني ضمن تناسق
عجيب، وصفة الفاعلية المتأتية من الشحنات الروحية الهائلة المرتبطة بعنصر
الغيب، الذي يجد تجلياته الكبرى في خشية الله عز وجل ومراقبته، ورجاء
اليوم الآخر. إن الآثار التنموية المترتبة عن تغلغل عناصر هذا النسق في
كيان الفرد المسلم وتحوله (أي النسق) إلى نمط مهيم على سلوك الناس
محدد لمواقفهم، قد ترتقي بشعور هؤلاء إلى مستوى رفيع، يجعلهم يقدمون
الواجب على الحق، في ممارستهم الحياتية. وواضح ما يثمره تجسيد هذه
المعادلة في الواقع من بركة في المجال التنموي، وفي مجال العدالة
الاجتماعية. يقول الدكتور الشاهد البوشيخي: "لو شغلنا الناس بأداء الواجب
لاسترحنا من المطالبة بالحقوق، وهذا الأمر معكوس في الأحاديث النقابية"².
لقد جعل الرسول □ ممارسة هذه المعادلة الرفيعة حلا ناجعا وعلاجاً شافيا
من مرض الأثرة الذي يكفي لوحده أن يمزق النسيج الاجتماعي وأن يعرض

¹ - مقدمة الأستاذ عمر عبيد حسنة، لكتاب د. يوسف إبراهيم يوسف - إنفاق
العفو في الإسلام بين النظرية والتطبيق - كتاب الأمة رقم 36، إصدار مركز
البحوث والمعلومات بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة قطر.
² 1- المضامين التنموية للثقافة الإسلامية/ مرجع سابق..

أي مشروع تنموي للإخفاق الحتمي. يقول الرسول ﷺ: "إنها ستكون بعدي
أثرة وأمور تنكرونها قالوا يا رسول الله كيف تأمر من أدرك منا ذلك قال
تؤدون الحق الذي عليكم وتسألون الله الذي لكم"¹.
نستخلص مما سبق أن الصفة الثالثة المميزة للنسق القيمي الإسلامي هي
صفة العدل.

ومن غريب المفارقات أنه في الوقت الذي يتساءل بعض الناس المحسوبين
على التربية عندنا عن جدوى مادة التربية الإسلامية في نظامنا التعليمي، نجد
مؤتمرات ضخمة تقام في المجتمعات التي بلغت شأواً بعيداً في الإنتاج المادي،
تخصص لبحث مسألة القيم في زيادة الإنتاجية. "ومن أمثلة هذه المؤتمرات،
المؤتمر الثاني لاجتماعيات العلوم الاقتصادية الذي عقد في مارس عام 1998 في
جامعة جورج تاون في مدينة واشنطن العاصمة، حيث حضر أكثر من 800 مشترك
بينهم متخصصون في علم النفس وعلم الاجتماع والعلوم السياسية، والفلاسفة
وعلماء الاقتصاد وطلبة إدارة الأعمال، وقدم حوالي (200) مائتي بحث نوقشت في
حوالي 50 جلسة، ثم جمعت خلاصة الأبحاث المشار إليها في مجلد يحمل عنوان:
"الأخلاق والعقلانية والفاعلية" وكان محور المؤتمر المذكور امتداداً للمؤتمر الأول
الذي عقد في كلية إدارة الأعمال بجامعة هارفرد عام 1989. ولقد تركز هذا
المحور حول مراجعة الأسس التقليدية القديمة للاقتصاد، والتي تفصل بين التجارة
والأعمال، وبين القيم والمسؤولية الأخلاقية، ثم مناقشة أثر القيم والمسؤولية
الأخلاقية في زيادة "فاعلية" إنتاج الشركات الكبرى"².

وتعد مثل هذه المؤتمرات، في بيئة قائمة على فلسفة حياة مادية، مؤشراً
على بداية صحوة فكرية، ولو كانت حبيسة النزعة المادية والفلسفة البرجماتية
اللاهثة وراء التكديس والرفع من وتائر الإنتاج والمنافع المادية. ولعلها تنتهي بعد
حين بفعل الصدمات والأزمات، وتعمق الإحساس بالشقاء وفداحة الخسائر على

¹ -2 مسلم ج 3 ص 1472. دار إحياء التراث العربي .

² - د. ماجد عرسان الكيلاني - التربية والتجديد - مكتبة دار الاستقامة مكة
المكرمة، مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع. ط 1/1418 - 1997 ص:
1413.

صعيد إنسانية الإنسان وكرامته، إلى الارتفاع بنظرتها إلى المستوى الشمولي للقيم الأخلاقية، كبديل لإخراج الإنسانية الشاردة من مأزقها الحضاري العويص.

بين الخاص والعام في العلاقة بين القيم والتنمية:

إن معالجة البعد التنموي للقيم التربوية، يمكن أن يتخذ منحنيين، يتعلق أولهما باستجلاء معالم البيئة الثقافية العامة، التي يتم نسج خيوطها على أساس جملة من القيم ذات الطابع العقدي كالإيمان بالله عز وجل واستحضار خشيته ومعيته، وذات الطابع المنهجي كالحرص على النظام والصرامة في التعامل مع قضايا المجتمع وهمومه، وإعطاء كل ذي حق حقه، أو ذات الطابع النفسي كحب العمل والتفاني فيه، والحرص على إتقانه، وشيوع خلق الرحمة والتراحم والمحبة بين أفراد المجتمع المسلم، وما إلى ذلك من قيم من شأنها، إن تأصلت في بنية المجتمع، أن تشيع فيه جو الأمن والثقة والاطمئنان، وهي عناصر أو قُل مقومات أساسية لا غنى عنها لأي سلوك أو ممارسة تنموية راشدة، فعالة ودائمة.

أما المنحى الثاني فيتعلق بإبراز الحمولة التنموية المباشرة التي تكتسبها بعض القيم وتحولها إلى هيئة راسخة فيه، تتجدد حيويتها باستمرار، بفعل تجدد الإيمان والارتقاء في معارجه. وأذكر من جملة القيم التي تملك هذه الخاصية، ما يتعلق باستجابة الفرد المسلم لأمر الإسلام بدفع الزكاة، أو بالتصدق من فائض المال فيما سوى الزكاة، مصداقاً لقوله عليه الصلاة والسلام: "إن في المال حقا سوى الزكاة"¹، أو بمبادرة إلى توقيف بعض ما أفاء الله به عليه، في بعض وجوه الخير التي تسد الخلل وترتفع بمستوى المجتمع الاجتماعي، وتساهم في الحفاظ على توازنه.

ومن عجب أمر النسيج التنموي في الإسلام أنه ثابت الحضور في الأحكام التشريعية، بقدر ما هو ثابت الحضور في القيم الأخلاقية التي تحدد اتجاهات ومعايير السلوك والمعاملة لدى الإنسان المسلم. فبالإضافة إلى ما تمثله الزكاة باعتبارها رافداً حيويًا للتنمية المتوازنة في الإسلام، تمثل الوصية والميراث والندور والكفارات، وغيرها روافد هامة في ذلك الاتجاه.

¹ - رواه الترمذي، كتاب الزكاة. باب ما جاء أن في المال حقا سوى الزكاة.

وإذا كان الإسلام يحرص على صياغة شخصية قوية، من خلال تشريها واستنباطها لنسق تربوي فعال، ويضمن إقامة مجتمع مسلم يسوده الرخاء وتعمه البركة، فإنه يحرص بنفس القدر على تأمين ذلك وحمايته بدرء واستبعاد كل الممارسات المرضية الشاذة والانحرافات الخلقية التي تمثل – إن شاعت واستفحلت في البناء الاجتماعي – عوائق حقيقية لقيام التنمية أو معاول لنسف وإتلاف ما يمكن أن يكون قد أنجز من أعمال ومشاريع تنموية، لأن تلك الانحرافات تصيب المحور الذي عليه مدار التنمية في الصميم، وهو الإنسان، إصابتها لثمراتها ومخرجاتها على حد سواء.

ويدخل في هذه الانحرافات اعتماد النظام الربوي في الاقتصاد – والمعاملات المالية، والتعامل بالرشوة والمحسوبية، كوسيلتين لقضاء الحاجات واحتلال المواقع الحساسة، وتذليل العقبات المعرفية والإدارية. وغير خاف ما تمثله هاتان الجرثومتان كسرطان يمتص الطاقات ويهدر الكفاءات، وما يولده ذلك على صعيد الوعي الشعبي من شعور بالإحباط قد يقضي في الغالب إلى زعزعة الشعور بالانتماء لدى الضحايا والمقهورين، وفي ذلك ما فيه من تهديد للشبكة الاجتماعية وتهوين لنسبها، وإضعاف لحيويتها وحصانتها. وغير خاف عن أولى الألباب أن شيوخ أمراض من قبيل الرشوة والمحسوبية في أوساط المجتمع، إن هو إلا نتاج لنضوب معين القيم الإسلامية في نفوس مقترفي تلك المفاسد.

وهذه الحقيقة تشكل رسالة بليغة لدعاة تخليق الإدارة. فالعجب كل العجب من إعلان حملة في هذا السبيل في ظل غياب مدقح للإهمال بأصل الأخلاق، ألا وهي قيم الدين في كليتها وشمولييتها.

ويندرج في الانحرافات المشار إليها مفاسد تتصل مباشرة بكيان الإنسان، وبإمكانيات الأمة، فهي تجهز على كليتين تعتبران مقومين أساسيين من مقومات التنمية: الإنسان والمال. ويبرز من ضمن هذه المفاسد، التعاطي للخمور والمسكرات ومقارفة الزنا وغيره من الموبقات، فهذه في مستوى من المستويات

تؤدي إلى الإهدار والافتقار¹، كما تؤدي إلى قلب مهول للتركيبة السكانية التي تصبح بعد حين ملوثة بجحافل الأبناء غير الشرعيين الذين يجرون وراءهم عقدا لا تنتهي، تفقد المجتمع هويته ومعنى وجوده، بقدر ما تفقدهم ذلك على المستوى الشخصي.

أما في مستوى أعمق مما سبقه، فإن مفاصد الخمر والزنا تؤدي إلى الفناء والانقراض².

إن الأوجاع والآلام التي تحيق بمجتمعات تغرق في الآثام، باهضة الكلفة على المستوى النفسي بقدر ما هي باهضة الكلفة على المستوى المادي.

وبقدر ما ينهى الإسلام عن مقاربة المفاصد المادية، ينهى عن السقوط في العطل والأمراض المعنوية التي تورث المجتمعات التي تسود فيها آفة الفقر، من ذلك ما يتعلق بالتبطل والتواكل، والتذرع بالقناعة بالكسب القليل، ذلك أن الإسلام يأمر بالاستزادة في الإنتاج بغير حدود، اللهم حدود الفطرة التي تعبر عنها أحكام الشرع الحكيم، والتي تؤدي مخالفتها حتما إلى تحول التنمية إلى لا تنمية، وهو ما حصل في الغرب بسبب قصة جنون البقر، وما جرى مجراه.

إن مسار التنمية يهدد من جراء الرعونة والاعتداء على الفطرة وتغيير خلق الله، كما يهدد بسبب الخلود إلى التبطل وتعطيل الطاقات التي خلقها الله عز وجل لتنتج وتؤتي ثمارها البانعة.

¹ - فاليابان على سبيل المثال تنفق ثلاثين مليار دولار على مدمني الخمر، وما ينفق في أوروبا وأمريكا في الأبحاث المخصصة لمحاولات الكشف عن علاج للسيدا وكذا لمحاولة التخفيف من معاناة المصابين به يمثل أرقاما باهضة جدا. كما أن الأرواح التي ترهق بسبب حوادث السير التي من ورائها السكر تشكل نزيفا بشريا مروعا يترك آثاره البليغة على التنمية.

² - ينظر في بيان ذلك سلسلة مصطفى فوزي غزال التي من ضمنها: "أقول شمس الحضارة الغربية من نافذة الخمر (ج 4) ومن نافذة الشذوذ الجنسي (ج 5)، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط 1406/1986، ففيها صورة قائمة عما يعانيه الغرب جراء هذه الموبقات.

والتزام المنهج الوسط الذي لا تخالطه العلى، منهج الإسلام، هو وحده الكفيل بتجنيب الإنسانية داء الجنوح إلى حد الطرفين وما يورثه ذلك من مثالب وأزمات. يقول الشيخ محمد الغزالي في كتابه: "الإسلام والطاقات المعطلة": "إِذَا رَأَيْتَ طَاقَاتٍ مَعْطَلَةً وَأَعْمَالًا مَهْمَلَةً وَوَأَجَابَاتٍ مَهْدَدَةً، فَتَقَنَّ أَنَّ الَّذِي ضَاعَ مِنْ دِينِ اللَّهِ لَا يَقِلُّ عَنِ الَّذِي ضَاعَ مِنْ دُنْيَا النَّاسِ. وَتَقَنَّ أَنَّ الْإِثْبَارَ النَّفْسِيَّ الَّذِي جَرَّ هَذَا الضِّيَاعَ، قَدْ أَصَابَ الْإِيمَانَ وَالخَلْقَ بِمَثَلِ مَا أَصَابَ الْحَضَارَةَ وَالْعُمَرَانَ. وَالَّذِينَ قَدْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَ التَّخَلُّفِ وَالْجُمُودِ - الَّتِي تَلْمَحُ فِي بَعْضِ الْبَيْئَاتِ - لَوْ أَنَّ نَصُوصَهُ الْمَحْدَدَةَ هَوَّنَتْ مِنْ قِيَمَةِ السَّعْيِ، أَوْ رَغِبَتْ النَّاسَ عَنْهُ، أَوْ لَوْ أَنَّ مَا يَبْقَى فِي النَّفُوسِ بَعْدَ تَلَاوَةِ آيَاتِهِ، يُوحِي بِالْإِسْتِكْنَةِ وَالرُّكُودِ. لَكِنَّا نَتَدَبَّرُ الْقُرْآنَ كُلَّهُ فَلَا نَجِدُ دَعْوَةَ أَحَرِّ مِنْ دَعْوَتِهِ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ وَالْإِصْلَاحِ، وَنَتَدَبَّرُ سِيرَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَا نَجِدُ رَجُولَةً تَدَانِيهَا فِي الْكِفَاحِ وَالِدَّابِّ، وَالْمَصَابِرَةَ إِلَى آخِرِ رَمَقٍ. وَنَتَدَبَّرُ الْأُمَّةَ الْعَرَبِيَّةَ الَّتِي ظَهَرَ فِيهَا هَذَا الدِّينَ، فَجَدَّ أُمَّةً أَتَلَقَّتْ بَغْتَةً بَعْدَ وَقُوفٍ طَوِيلٍ وَبَرَزَتْ بَعْدَ خَفَاءٍ مَهِينٍ. وَلَمْ يَكُنِ الْوَقُودَ الَّذِي أَشْعَلَ حَرَكَتَهَا وَأَطْلَقَ ثَوْرَتَهَا إِلَّا هَذَا الدِّينُ"¹.

• وقفة خاصة عند مقررات مادة التربية الإسلامية في

ضوء متطلبات التنمية:

إن التحليلات الواردة ضمن العنصر السابق وما ارتبط بها من أحكام، تكتسي طابع العموم، لأنها تتعلق بالمادة الإسلامية من حيث هي في ظل منظومة تربوية موسومة بالتناقض والاضطراب، وبما تختزنه في ذاتها من قدرة على العطاء في مجال التشكيل وتحديد مسار التنمية.

وسأحاول - فيما يلي - أن أقف وقفة تأملية عند مجمل المقررات الدراسية لمادة التربية الإسلامية، راصدا لما يمكن أن تقدمه للناشئة في ظل عالم يموج بصراع التكتلات المذهبية، وتسعى فيه قوى العولمة أن تلتهم الجميع وتفرض منظومتها القيمية على الكرة الأرضية برمتها، ضاربة عرض الحائط بمقولات التعدد

¹ - نشر الزيتونة للإعلام والنشر، باتنة الجزائر (ص: 26).

الثقافي واحترام الخصوصيات، علما بأن جوهر القيم التي يروج لها باسم العولمة لا تخرج عن كونها خلاصة لما انتهى إليه الفكر الليبرالي الرأسمالي المشبع بالمبادئ والتصورات الصليبية اليهودية، والذي يتبنى مقولات "نهاية العالم" ومقولة "صراع الحضارات".

ملاحظات أساسية:

إن أول ملاحظة ينبغي إبرازها وأخذها بعين الاعتبار، هي أن إلقاء مهمة التشكيل المذهبي وتعميق الشعور بالهوية لدى المتعلمين على عاتق ما يسمى بمادة التربية الإسلامية، هو أولاً: مخالف لمقتضيات بناء المنهج التربوي التي تفرض ضرورة تكامل خبرات ومعارف جميع الوحدات الدراسية فيما يراد نقله من مبادئ وتصورات إلى الناشئة. وهو مطلب منعدم تماماً في منظومتنا - كما سبق بيانه - ثم هو ثانياً يشكل عبئاً ثقيلاً على هذه المادة يفرض عليها أن تبذل جهداً استثنائياً في تحصين الناشئة ودرء ما يمكن درؤه مما قد يتسرب إلى كيانها من سموم. لن تكون وفتي عند مقررات التربية الإسلامية - بطبيعة الحال - وفتة تفصيلية تشريحية، لا أفقية ولا عمودية، فذلك ما يحتاج إلى دراسة قائمة الذات¹، وإنما ستكون وفتة انطباقية استنباطية تستدعي خلاصة التجربة والمعاشية. انطلاقاً من ذلك أقول: إن النجاح في صياغة النموذج المسلم الذي تتكامل فيه الإرادة الخيرة مع القدرة التسخيرية، رهين بالمربي القدوة الذي يمتلك المهارة الفنية المقرونة بالحكمة، فيكون النتاج المنشود عبارة عن شخص يتجسد في ذلك المركب الخير الفذ، ويكون قادراً على إعادة إنتاجه في المحيط الذي يتفاعل معه وفيه.

غير أن نوعية المربي الذي هذه ميزته، هي من الندرة بمكان، فإذا أضفنا إلى ذلك ما يمكن أن يعترى المقررات من ثغرات من حيث تنظيمها وتكاملها أو

¹ - أحيل هنا على دراسة مشتركة تم إنجازها بأكاديمية وجدة ساهم فيها صاحب المداخلة، تحت عنوان: "قراءة عمودية لكتب التربية الإسلامية في السلك الأول والثاني أساسياً".

كفايتها، كان علينا أن نكون واقعيين فيما نعلقه من مآل على نوعية النموذج المتخرج من منظومة عرفنا مواصفاتها.

ومع ذلك فإن خيرا عميما يمكن أن يرجى من المادة الإسلامية التي يتلقاها التلميذ في مختلف مراحل التعليم.

فالعقيدة أو دروس العقيدة يمكن أن تشحن حاسة الإيمان بالغيب لدى المتعلم وتربطه بربه من خلال تعريفه بصفاته العليا وأسمائه الحسنى.

غير أن نجاعة ذلك تظل رهينة بفعالية المدرس من جهة، وبمنهجية تقديم المادة من جهة أخرى، فلا ينتظر مثلا من المنهج الكلامي في تناول العقيدة، نتائج هامة في تحريك وجدان المتعلم وإيقافه على حقائق الألوهية، وما تستوجبه من تعظيم وإجلال وطاعة وإنابة وامتنال.

والحقيقة أن دروس العقيدة في مقرراتنا لا تزال تشكو من غلبة منهج المتكلمين، وقلما استلهمت المنهج القرآني الذي يقوم على عرض لصفات الله نابض بالحركة، ملامس لشغاف الفطرة، مستقطب لجماع أحاسيس الإنسان، ومداركة وأشواقه. وعلى الرغم من أن دروس العقيدة في مدارسنا، يمكن أن تؤدي بعضا من أهدافها في ترسيخ العقيدة الإسلامية بجميع أركانها، إلا أنه يظل دون المستوى المطلوب بكثير، في تنمية الحس الإيماني المتيقظ والمرهف لدى المتعلمين، مما يحول في كثير من الأحيان دون النجاح في إعداد الإنسان الرسالي التقي الرباني الذي يستصحب معية الله عز وجل، ويتحرك بها في الحياة بكل إيجابية وفعالية، وينطلق في كل شأن من شؤونه، من محبة الله عز وجل وابتغاء رضوانه، واعيا أتم الوعي بأن الدنيا مزرعة الآخرة، فلا يدخر جهدا في زرع دنياه بالعمل الصالح وجعلها ميدانا فسيحا لخوض ملاحم العطاء والجهاد.

إننا إذا أخذنا على سبيل المثال – صفة من صفات الكمال الإلهي وهي العلم، وواحدا من أسماء الله الحسنى: الرازق، واستعرضنا إمكانيات المعالجة لهما، فإننا ننتهي إلى قناعة جازمة، بأن أنجع طريق وأبلغه في الاستفادة من الظلال التربوية الخاصة بهما، إنما هو الطريق، الذي يستوحي روح القرآن في الفهم والتصنيف وضبط الدلالات والنتائج والآثار، وذلك في علاقة مع السنة الشارحة المبينة

والسيرة التي تمثل النموذج السلوكي الحركي الأعلى لتجسيد قيمة العلم وما يقتضيه من أخلاق ينبغي أن تنعكس بوضوح على سلوك الإنسان المسلم. وكذلك الأمر بالنسبة لصفة "الرزاق". فمعالجتها بالمنهج القرآني تشرع أمام الناشئة المتعلمة آفاقا ممتدة للضرب في مناكب الأرض واتخاذ الأسباب وتسخير السنن بعد كشفها، مع اليقين بأن الوقوف بباب الله عز وجل، بسلوك منهجه القويم، والتوجه الخالص إليه سبحانه وتعالى، وطلب عونه ومدده، كل ذلك هو الكفيل بفتح أبواب الرزق وإفاضة الخيرات والمباركة فيها، وتحريرنا أفرادا وجماعات وأمة من الافتقار إلا إليه سبحانه وتعالى.

وإذا انتقلنا من العقيدة التي هي أساس المنهج الذي يمدده بالقوة والفاعلية، ويمنحه الاستمرار والتجدد والنماء، إلى الجانب الأخلاقي، فإننا نلاحظ — من خلال استقراءنا لمفردات مكون الأخلاق — أنه رغم ما يكتسبه من أهمية، وما ينتظر منه من فوائد على مستوى التقويم والبناء التربوي، فإنه يظل قابلا لإعادة النظر فيه، إعادة هيكلته وتنظيمه وفق مخطط أكثر إحكاما وأوفر جنى. وهنا يمكن أن نضع جملة من الأسئلة الهادية التي تفتح أمامنا مجالا خصبا للبحث عن الصيغ الأكثر نضجا وملاءمة للفطرة وذلك من قبيل ما يلي:

- 1 — أيها أكثر نتاجا وأعمق أثرا، أهو تدريس الأخلاق عن طريق إثارة المشاكل السائدة ومعالجتها من منظور الإسلام الشامل للحياة، أو هو تقديم هذه الدروس تقديما نظريا جافا من خلال عرض مجموعة من القيم، قلما يكون معززا بأمثلة من الواقع ومسوقا في ضوء الإطار الشامل للإسلام؟
- 2 — أيها أعمق معالجة لدروس الأخلاق، أهي الطريقة التي تمزج بين الأخلاق وبين العقيدة والسيرة، أم هي تلك التي تعالج الأخلاق في معزل عن ذلك؟
- 3 — أي سلم للأولويات ينبغي أن يعتمد في اختيار وترتيب المواضيع والقيم المعالجة، وما هي المعايير التي يتأسس عليها بناء ذلك السلم؟
- 4 — عندما نكون بصدد اختيار المفردات المشكلة لقوام المقررات في "مادة التربية الإسلامية"، ما هو المعيار الدقيق الذي نسترشد به لإقامة التوازن بين الحد

الأدنى من المعارف الذي لا يجوز النزول عنه، وبين القيم والمخرجات التربوية المتوخاة من وراء ذلك؟.

فعلى سبيل المثال، ما هو الحد الأدنى الذي لا يجوز لتلميذ الثانوي جهله فيما يتعلق بعلوم القرآن، وعلوم الحديث وأصول الفقه، علماً بأن أهداف مرحلة الثانوي هي أبعد ما تكون عن التخصص في مثل هذه العلوم.. وعلماً بأن قضايا وإشكالات ثقافية واجتماعية وتربوية تلح على أذهان التلاميذ الذي يتعرضون لعمليات استدراج رهيبية لتبني مواقف بشأنها خارج مذهبية الإسلام؟.

ملامح مشروع تصور أولي لبناء منهاج لمادة التربية الإسلامية يستجيب لمتطلبات التنمية :

أبدأ بتوكيد ما سبق أن ذكرته قبل من أن وضع مادة التربية الإسلامية في ظل "منظومتنا" التعليمية وضع في غاية الصعوبة والحرَج، نتيجة الأسباب والعوامل التي أسلفت بيانها. ومن ثم فإن دور المادة الإسلامية وسط مفردات المواد الأساسية الأخرى، يكاد أن يكون مماثلاً إلى حد بعيد لدور رجل موسوم بالتعقل والصلاح وسط أقوام فيهم من خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وفيهم من كثرت ذنوبه حتى غطت على حسناته، وفيهم العربييد الغارق في شهواته، بل ولا نعدم في حالات غير نادرة من لا يتورع عن إعلان مروقه وارتداده، إن هذا الوضع يقضي بقوة أن تمارس مادة التربية الإسلامية دور الإنقاذ والبلاغ والبناء بأساليب غاية في الابتكار وتسخير المواهب والطاقات¹. فهل من سبيل إلى ذلك؟ وكيف؟.

— إن أول عنصر ينبغي أن يتخذ موقعه في سياق المنهاج المنشود، هو عنصر العقيدة الذي يشكل أساسه المكين، وهذا من البداهة بمكان، نظراً لمركزية العقيدة في نظام الإسلام القائمة على التوحيد، الذي فجر في الإنسان طاقات هائلة، وزحزح من كيانه كل العوائق والعقد، التي صنعها الشرك بتصوراته الخرقاء وعقائده التي شلت قوى الناس وعطلت مواهبهم وقدرتهم على التفكير والعطاء.

¹ - وهذا بطبيعة الحال رهين بفسح المجال أمامها لفعل ذلك، دون تضيق ومصادرة.

ويكتسب عنصر التوحيد كأساس للمنهاج التربوي المنشود عظمته وبعده التنموي من كونه مجسداً للفطرة، ولتركيز الولاء لله الواحد القهار، وهو مناط لتركيز الطاقات والذي يجنب التيه والضياع والإهدار. يقول الله سبحانه وتعالى/ (آرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار)¹.

— أما الملمح أو العنصر الثاني الذي ينبغي أن يكون قوي الحضور في المنهاج التربوي للمادة فهو عنصر العبادة الذي ينبغي أن يقدم في قوالب جذابة وأساليب متجددة، وأن تراعى في عدة التقديم والإجاز، المرحلة العمرية ومستوى النضج العقلي والنفسي عند المتعلمين، كل ذلك في ارتباط وتضافر مع التطبيق أو التدريب العلمي الذي لم يلق أي اهتمام في مؤسساتنا التعليمية، وكأن حركة الأبدان يمكن أن تستقيم وتزكو في معزل عن صفاء الروح وخلوص توجهها لبارئها الذي تفضل عليها بالإيجاد والإنعام. وأذكر هنا على سبيل التمثيل — فيما يخص مراعاة مستوى النضج العقلي والنفسي للمتعلمين — أن الطريقة التي ينبغي أن يقدم بها درس الصلاة في المرحلة الثانوية، تختلف — إلى حد بعيد — عن الطريقة التي يقدم بها في الطور الأول من التعليم الأساسي، فبينما يكتفي في هذا بتقديم ما يتعلق بالصلاة من طهارة وما يقوم عليه هيكل الصلاة من فرائض وسنن وما إليها، يعالج درس الصلاة في المرحلة الثانوية، وفق منظور أرقى، يتجاوز شكل الصلاة ورسومها، للنفاذ إلى روحها وفلسفتها ومقاصدها، في ضوء قوله تعالى: (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر)².

ويتمثل الملمح الثالث في النظام الأخلاقي الذي يستهدف — في ترابط مع نظام العبادات — تحلية نفوس المتعلمين بجميل الخصال من صدق وصبر وأمانة ونجدة وكرم وإيثار وعفة وقناعة، وما إلى ذلك من قيم يدرّب عليها النشء، وتكون كقيلة إن استحكمت في كيانه وأخذت بجماع نفسه، بأن تشكل أرضية خصبة للعطاء والتنمية والبناء. فالأخلاق، وكما سبق أن أشرت أساس التنمية وسياجها في نفس الوقت.

¹ - يوسف: 39

² - النحل: 90

ويمثل نظام المعاملات، العنصر الرابع، في نسق المنهاج، فهو الوجه المباشر أو التجلي الخارجي الذي يتبلور فيه الفعل التنموي عبر العلاقات والتفاعلات، وهو الذي يعكس مصداق سلامة البناء التربوي بجميع أسسه المتصلة بالعقيدة والعبادة والأخلاق. فـ"الدين المعاملة".

أما العنصر الخامس فأقترح أن يكون عبارة عن نصوص قرآنية وحديثية تختار بعناية وتدرس وفق منهجية هادفة إلى تدريب الناشئة على تدبر كتاب الله العزيز وحسن تذوق ألفاظه والقدرة على تفهم خطابه والنفوذ إلى مقاصده وكذلك الأمر بالنسبة لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إن فتح جسور التواصل المباشر بين المتعلمين وبين القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، هو فتح لآفاق واعدة لتنمية العقل المسلم، وبناء شاكلته الثقافية المتميزة، وأي تفويت لهذه الفرصة على الناشئة، إما بإغفالها كلية، أو بسوء استثمارها منهجيا ومقاصديا، يشكل تفويتا لخير كثير على مستوى تنمية أجيال قادرة على إثبات استقلاليتها وريادتها وسط معترك المذاهب والأفكار.

– وفي الأخير أقترح كعنصر سادس تدريس السيرة في شكل كتاب مهذب للسيرة النبوية يدرس كاملا على مدى السنة الدراسية، ويتم ذلك وفق منهجية محكمة تراعي استخلاص العبر والدروس، وربطها بمتطلبات الأمة وتسخيرها في سياق إعادة إنتاج أجيال متميزة بالرسالية القائمة على التأسى والاقتداء. ويمكن أن يدرج تدريس هذا الكتاب في نطاق مادة تدريس المؤلفات على غرار ما هو مقرر في مادة اللغة العربية. مما أصبح مدخلا لتمرير كتب مخربة للفكر ناسفة للقيم.

خاتمة:

وخاتما أقول: إن مادة التربية الإسلامية، حتى في أسوأ أوضاعها – كما هي الآن – بسبب اعتبارها وحدها المسؤولة عن تقديم الوعي الإسلامي للناشئة، ضدا على ما هو مصرح به في صدر المواثيق والأغراض الموجهة للتعليم، قادرة على المجادلة والبناء شريطة أن تنتزع حدا محترما من الشروط، أبرزها منهاج تربوي متوازن وأستاذ رسالي وغلاف زمني مناسب ومعامل في مستوى فداسة المادة وما هو منوط بها من أهداف.

